النظم القرآني في سورة يونس

إعداد

أحمد حسن محمود سواعي

المشرف الرئيسي

أ . د . محمد إبراهيم حوّر

قدّمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير

في تخصص اللغويات

عمادة البحث العلمي والدّراسات العليا في الجامعة الهاشمية

الزرقاء - الأردن

٣٠ , آذار , ٢٠١٠ م

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ ٣٠ / ٣ / ٢٠١٠ م

أعضاء لجنة المناقشة :	التوقيع
الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم حوّر ، رئيساً أستاذ ، الأدب والنقد / الجامعة الهاشمية	.....
الدكتور عمر راشد خليل ، عضواً أستاذ مساعد ، علم اللغة والبلاغة / الجامعة الهاشمية	.....
الدكتورة خلود إبراهيم العموش ، عضواً أستاذ مساعد ، علم اللغة والنحو / الجامعة الهاشمية	.....
الأستاذ الدكتور محمود حسني مغالسة ، عضواً أستاذ ، النحو والصرف الجامعة الأردنية	.....

إهداء

- إلى والدي .... الذي كان يجد رحيق متعته في المعاناة من أجلي , وقبيل قطاف الجنى , لبّى نداء ربه راضياً مرضيّاً .

- إلى والدتي .... رمز الحنان ونبع العطاء .

- إلى إخواني وأخواتي .... تقديراً لمشاعرهم النبيلة ودعواهم الصادقة .

- إلى كلّ أحبتي .

أهدي هذا البحث

شكر وتقدير

- إلى الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم حوَّر الذي تفضَّل عليّ بقبوله الإشراف على هذه الرسالة ؛ لتكون على هذا الوجه , فله كلّ الشكر والتقدير .

- إلى معلمتيّ الفاضلتين : الدكتورة ثناء عياش ,والدكتورة خلود العموش , اللتين كانتا لي نعم العون والسند , فلهما كلّ الشكر والتقدير .

- كما أتقدم بالشكر الجزيل لأعضاء لجنة المناقشة : الأستاذ الدكتور محمود حسني مغالسة والدكتور عمر راشد لتفضّلهما بقبول مناقشة هذه الرسالة وإبداء آرائهما وتوجيهاتهما التي ستكون عوناً لي ودليلاً هادياً لمزيد من المعرفة, فلهما جزيل الشكر.

قائمة المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
أعضاء لجنة المناقشة	ب
الإهداء	ج
شكر وتقدير	د
قائمة المحتويات	هـ
الملخّص باللغة العربية	ح
المقدمة	١
التمهيد	٥
أولاً : وصف عام لسورة يونس	٦
ثانياً : النظم القرآني مفهومه وفوائده	٧
الفصل الأول : التناسب في سورة يونس	٩
أوّلا : توطئة	١١
أ- ترتيب سور القرآن الكريم	١١
ب- علم المناسبة مفهومه وفوائده	١٤
ثانياً : مناسبة فاتحة سورة يونس لخاتمة ما قبلها	١٧
ثالثاً : مناسبة خاتمة سورة يونس لفاتحة ما بعدها	٢٣
رابعاً : مناسبة فاتحة سورة يونس لخاتمتها	٢٩
خامساً : مناسبة فاصلة الآية لمضمونها	٣٢
سادساً : مناسبة الآية لما قبلها	٤٣
الفصل الثاني : أساليب النظم القرآني في سورة يونس	٤٩
أوّلاً : أساليب علم المعاني	٥٠
- الالتفات	٥١
- التقديم والتأخير	٥٦
- الاستفهام	٦٤
- النداء	٧١
- الأمر	٧٥

- النهي والنفي	٧٧
- التعريف والتنكير	٨٣
- الحذف والزيادة	٨٩
ثانياً : أساليب علم البيان	٩٤
- التشبيه	٩٥
- الاستعارة	١٠٣
- الكناية	١١٠
- المجاز المرسل	١١٤
ثالثاً : أساليب علم البديع	١١٧
- الطباق	١١٨
- المقابلة	١٢٨
- الجناس	١٣٤
- المشاكلة اللفظية	١٣٩
- السجع	١٤٣
الفصل الثالث : النظم القرآني في معجم سورة يونس	١٤٦
أولاً : النظم القرآني في بعض الألفاظ في سورة يونس	١٤٩
- لفظتا بغياً وعدواً	١٤٩
- لفظة رجس	١٥٢
- لفظة غمّة	١٥٣
ثانياً : النظم القرآني في بعض التراكيب في سورة يونس	١٥٦
- تركيب ننجيك ببدنك	١٥٦
- تركيب أسروا الندامة	١٥٧
ثالثاً : النظم القرآني في ألفاظ تكررت في سورة يونس	١٦٠
- لفظة تبوّأ	١٦٠
- لفظة السحر	١٦٣
- لفظة الضلال	١٦٧
- لفظة الافتراء	١٧٠
- لفظتا قتر وذلّة	١٧٢
- لفظة آلآن	١٧٤

- الخاتمة	١٧٦
- المصادر والمراجع	١٧٨
- الملخّص باللغة الإنجليزية	١٨٨

ملخص

النظم القرآني في سورة يونس

إعداد

أحمد حسن محمود سواعي

المشرف الرئيسي

أ . د . محمد إبراهيم حوّر

تبحث هذه الدّراسة في الإعجاز القرآني في سورة يونس (**u**) مستندة إلى نظرية النظم التي أرسى قواعدها عبد القاهر الجرجاني , وتعدّ هذه الدراسة دراسة تطبيقية للتّناسب الخارجي في سورة يونس(**u**) , ودراسة أساليب علوم البلاغة في السورة وهي المعاني والبيان والبديع , والبعد المعجمي لبعض ألفاظها وتراكيبها .

وجاء الفصل الأول يتناول النظم الخارجي للآيات من حيث مناسبة أوّل السورة بآخر ما قبلها من سورة التوبة , ومناسبة آخر سورة يونس بأوّل ما بعدها من سورة هود. وكذلك مناسبة الآيات مع بعضها , وفواصل الآي . ويسبق ذلك كلّه الحديث عن علم المناسبة من حيث المفهوم والفوائد وترتيب سور القرآن كمدخل لدراسة الفصل .

وأمّا الفصل الثاني فيتناول علوم البلاغة وهي: المعاني والبيان والبديع كلّ منها في قسم خاص به ليتكّون الفصل من ثلاثة أقسام , أوّلها علم المعاني وأساليبه , ثمّ علم البيان وأساليبه , ومن ثمّ علم البديع وأساليبه .

وجاء الفصل الثالث من الدراسة يتناول البعد المعجمي لسورة يونس (**u**) من خلال رصد بعض الألفاظ والتراكيب التي كان لها الدّور البارز في تأدية المعنى المقصود من سياق الآي . وتضمّنت الخاتمة أهم نتائج الدراسة التي تمّ التوصل إليها .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله على سابغ نعمائه , والشّكر له سبحانه على وافر آلائه , وصلاته وسلامه على صفوة الصفوة من رسله وأنبيائه , محمّد وعلى آله وصحبه وسائر أوليائه وبعد ...

فمن المعروف لدينا أنّ القرآن الكريم أعظم كتاب عرفته البشرية جمعاء من حيث الصياغة والتركيب , وما تميّز به من الأسلوب المعجز , فحظي على مر العصور باهتمام الباحثين الذين حاولوا الكشف عن دقائقه وأسراره التي تحدّت وما تزال , البشر جميعهم على الإتيان بمثله . وقد جاءت الدراسات البلاغية لأسلوب القرآن الكريم ؛ لبيان أسرار ألفاظه وتذوّق بديع نظمه وبلاغته ؛ لتثبت هذه الدراسات إعجاز القرآن الكريم في نظمه إضافة إلى محتواه .

وتأتي دراستي هذه لتكون حلقة من حلقات الدراسات التي بحثت في بلاغة القرآن وبيانه . فاختصت الدراسة بسورة يونس (**u**) ؛ لما فيها من قضايا بلاغية ومعجمية تشدّ القارئ وتستوقفه ؛ لإنعام النظر حتى يدرك بعضاً من مواطن الإعجاز في النص القرآني , معتمدة على المنهج الاستقرائي التحليلي , الذي يقوم بتحليل النصّ تحليلاً كاملاً , فيتناول السورة من جوانبها البلاغية والمعجمية وعلاقتها مع ما بعدها وقبلها من السور , وكذلك علاقة الآيات معاً وفواصلها . علماً أنني لم أجد دراسة تناولت هذه القضايا في سورة يونس كما سأتناولها في دراستي هذه .

وتحاول الدّراسة استكمال الجهود التي بدأها السابقون . مستعينة بما استجدّ في علم اللغة وعلم الدلالة في فهم القضايا البلاغية في سورة يونس (**u**) ؛ لتبرز صوراً من الإعجاز البلاغيّ في القرآن الكريم , وتكمل سلسلة الدراسات البيانية التي درست النّظم القرآنيّ في سور القرآن الكريم . فتناولت الجانب التطبيقيّ لهذه القضايا دون الدراسة النظرية التفصيليّة .

وتقع الدراسة في مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول وخاتمة , أمّا المقدمة فتناولت وصف الدراسة وموضوعها والمنهج الذي سارت عليه , وتضمّن التمهيد وصفاً عامّاً لسورة يونس (**u**) وسبب اختيارها بين سور القرآن الكريم , بالإضافة إلى الحديث عن نظرية النّظم بشكل مختصر ؛ خشية التّكرار وذلك لتناولها بشكل مفصّل في دراسات سابقة لنظم سور القرآن الكريم [١] .

وجاء الفصل الأوّل يتناول النّظم الخارجي للآيات من حيث مناسبة أول السورة بآخر ما قبلها من سورة التّوبة , وكذلك مناسبة آخر سورة يونس بأوّل ما بعدها من سورة هود وتناول الفصل أيضاً مناسبة الآيات مع بعضها , وكذلك فواصل الآي من خلال أمثلة تطبيقيّة من سورة يونس (**u**) . وقد تقدّمَ هذا الفصل توطئة تناولت الحديث عن ترتيب سور القرآن والخلاف فيها قبل إثباتها من حيث نظمها . والحديث عن علم المناسبة من حيث المفهوم والفوائد .

١- انظر , الحاج علي , جمال رفيق , النظم القرآني في سورة يوسف عليه السلام , رسالة ماجستير, ٢٠٠٠ , جامعة النجاح الوطنية , فلسطين . والملاح , عائشة إبراهيم , النظم القرآني في سورة النور , رسالة ماجستير, ٢٠٠٤ , الجامعة الأردنية , الأردن .

وأمّا الفصل الثاني فتناول علوم البلاغة وهي المعاني والبيان والبديع كلّ منها في قسم خاص به ؛ ليتكوّن الفصل من ثلاثة أقسام , أوّلها علم المعاني ويبحث في عدّة أساليب تنطوي تحته وهي: الالتفات والتقديم والتأخير الاستفهام والنداء والنهي والتعريف والتنكير والحذف . وأمّا القسم الثاني فيبحث في أساليب علم البيان وهي : التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز المرسل . وأمّا القسم الثالث فيبحث في أساليب علم البديع وهي : الطباق والمقابلة والجناس والمشاكلة اللفظية , وقد تمّ دراسة هذه الأساليب من خلال أمثلة تطبيقية من سورة يونس (**u**) على كلّ أسلوب بشكل مفصّل يظهر فيه الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم .

وجاء الفصل الثالث من الدراسة يتناول البعد المعجمي لسورة يونس (**u**) من خلال رصد بعض الألفاظ والتراكيب التي كان لها الدور البارز في تأدية المعنى المقصود, مستعيناً بذلك على المعاجم اللغوية وكتب الفروق اللغوية إضافة إلى كتب التفسير . حيث يتفرّد اللفظ في سورة يونس بمعانٍ ودلالات خاصة لا تكمن في الألفاظ الأخرى , يكتسبها من خلال السياق القرآني .

وأمّا الخاتمة فقد تضمّنت أهمّ نتائج الدراسة التي تم التوصل إليها . وقد اعتمدت الدراسة على مجموعة من المصادر والمراجع , أهمّها كتب التفسير المتنوعة , ومؤلفات من اللغة والبلاغة قديمها وحديثها وتمّ إثباتها مفصّلة في النهاية الدراسة .

وفي ختام هذه المقدمة لا أزعم أنني تناولت جميع القضايا التي تتّصل بالإعجاز النظمي في سورة يونس (**u**) فهي كلام الله المعجز , وهذا ما فتح الله به علي فالكمال بغية بعيدة المنال , فهو لله وحده وعباده قاصرون عن بلوغه . والله أسأل أن أكون موفقاً فيما عرضت إليه من أفكار وآراء طرحتها أثناء التحليل فإنّ أصبت فتوفيقاً من الله وإن أخطأت ففوّق كلّ ذي علم عليم .

ولا يسعني في نهاية الحديث إلا أن أشكر لجنة المناقشة الذين لـــم يحـــضروا إلا ليقوّموا ما اعوجَّ في هذه الدراسة ، داعياً المولى عزَّ وجلَّ أن يكون هذا العمل فـــي ميـــزان حسنات كلّ من ساهم في خروجها على هذا الوجه .

والله ولي التوفيق

تمـهيد

أوّلاً : وصف عام لسورة يونس (u)

سورة يونس (**u**) سورة مكّية وآياتها مئة وتسع آيات , وكان لاختيار سورة يونس دون غيرها أنهّا تعكس صورة الإسلام واضحة وبسيطة , حيث تضمنت موضوعات العقيدة الإسلامية من تعريف الناس بربهّم الحق , وعبادته ونبذ الشرك والعقائد الفاسدة كعبادة الأصنام وغيرها . فجاءت تطمئن الرسول (**r**) وإعطائه الدافعية للاستمرار في الدعوة وعدم الانخذال والانكسار ؛ وذلك من خلال ذكر قصص الرسل السابقين عليهم السلام , وتحدّيهم لأقوامهم كموقف نوح(**u**) من قومه عند تكذيبهم له وعدم الإيمان برسالته , والاتّهامات بالسّحر التي لاقاها موسى (**u**) من قومه .

وتميّزت سورة يونس بإثبات الرسالة المحمدية ؛ لتتناسب مع البعد المكاني للسورة وهو مكّة المكرمة البلد الذي شهد بدايات الدعوة الإسلامية وتوحيد الله تعالى , فكان الناس بحاجة إلى هذا الأسلوب الذي يمتاز باللين واللطف والعقلانية في الدعوة [١] .

لقد سادت خصائص القرآن المكّي على أجواء السورة كاملة من صفات الرسل والعبرة بأحوالهم وعاداتهم وأعمالهم , ومحاجّة مشركي مكّة .إلاّ أنّ سورة يونس تميزت عن باقي السور بتكرار مقاصد العقائد من إثبات للوحي والرسالة والتّحدي بالقرآن الكريم وبيان إعجازه وحقيقته وصدقه , إلاّ أنّ هذا التكرار في المقاصد جاء بالأسلوب البديع والنّظم البليغ بحيث تحدث في نفس سامعها أروع الإقناع والتأثير بحيث لا يشعر بما فيها من التكرار [٢]

١- انظر: شقيرات، أحمد , وجوه الإعجاز في القرآن الكريم , مجلة " هدى الإسلام " إسلامية علمية أدبية, العدد ٥١/١، ٢٠٠٧ , وزارة الأوقاف , الأردن , ٦

٢- انظر , رضا , محمد رشيد , تفسير القرآن الحكيم المشتهر باسم تفسير المنار, ط٤ , دار المنار , القاهرة, ١٩٥٢ , ١١ / ٤٩٤ .

وأمّا يونس (**u**) فقصّته وقومه تمثل البشارة بالأمل للنبي (**r**) بأنّ رحمة الله واسعة, وباب التوبة مفتوح لمن آمن واتّقى , حيث قبل سبحانه توبة يونس (**u**) وقومه ورفع عنهم العذاب في آخر لحظة من وقوعه , فجاءت السورة تحمل اسمه ؛ بشارة للنبي (**r**) وقومه .

* * *

ثانياً : النّظم القرآني مفهومه ودلالته

النَّظْمُ في اللغة التأْليفُ ونظَمْتُ اللؤْلؤَ أي جمعته في السِّلْك , ومنه نَظَمْتُ الشِّعر ونَظَّمْته , ونَظَمَ الأَمرَ على المثَل وكلُّ شيء قَرَنْتَه بآخر أو ضَمَمْتَ بعضَه إلى بعض فقد نَظَمَتْه , والنَّظْمُ ما نظَمْته من لؤلؤٍ وخرزٍ وغيرهما وتَناظَمتِ الصُّخورُ تلاصَقَت [١] .

والنّظم في اصطلاح العلماء توخي معاني النحو يقول عبد القاهر الجرجاني :

" واعلم أنّ ليس النّظم إلاّ أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو , وتعمل على قوانينه وأصوله , وتعرف مناهجه التي نُهجت , فلا تزيغ عنها , وتحفظ الرّسوم التي رُسمت لك فلا تُخلّ بشيء منها [٢] " .

فالتّغيير في نظام الجملة من حيث ترتيب عناصرها أمر يقبله علم النحو شريطة إتمام الفائدة , والنظم ينظر إلى كلّ ترتيب بأنّه يؤدي إلى معنى عميق بناء على نفسية المتكلم , فيقدم ما حقّه التأخير ويؤخر ما حقه التقديم لحاجة في نفسه أراد أن يبلّغها السامع, يقول

١- انظر , ابن منظور(ت ٧٥٠) , أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم , لسان العرب, ١٩٩٧, دار صادر, بيروت , مادة نظم .

٢- الجرجاني(ت ٤٧١) , أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي, دلائل الإعجاز ,ط٣ , ١٩٩٢, تحقيق : محمود محمد شاكر , دار المدني , السعودية , ص ٨١ .

الجرجاني: " إنّ نظم الكلم يقتفي آثار المعاني ويرتّبها حسب ترتيب المعاني في النفس [١]".

فيبحث النّظم في علاقة الألفاظ والجمل ببعضها , والأسرار المعنويّة التي تختفي وراءها والتي أراد المتكلم التعبير عنها .

ويعدّ النّظم القرآني وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم للبشر , يقول الباقلاني في القرآن " , إنّه بديع النظم عجيب التأليف متناه في البلاغة إلى الحدّ الذي يُعلم عجز الخلق عنه [٢] " , ويظهر الإعجاز في نظم القرآن في التناسق بين عباراته وتخير الألفاظ ونظمها في نسق خاص يبلغ في الفصاحة أرقى درجاتها , والتسلسل المعنوي بين الأغراض في سياق الآيات , والتناسب في الانتقال من غرض لآخر [٣] .

وقد كثرت المؤلّفات التي تناولت نظم القرآن عبر العصور وتعدّدت , وتأتي دراستي هذه لتبحث وراء الأسرار البلاغية التي تختفي وراء ألفاظ القرآن الكريم من خلال وصف عام لسورة يونس (**u**) من حيث مناسبتها لما قبلها وبعدها من السور , ومناسبة آياتها بعضها لبعض , ومن حيث دلالة بعض الألفاظ والتراكيب والأساليب البلاغية التي وردت فيها .

١- الجرجاني , عبد القاهر , دلائل الإعجاز , ٤٩

٢- الباقلاني (ت ٤٠٣) , أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني , إعجاز القرآن, ١٩٢٧ , مطبعة السلفية , القاهرة , ٣٨ .

٣- انظر , قطب , سيد , التصوير الفني في القرآن الكريم , دار المعارف ,مصر,٧٤ و٧٥

الفصل الأول

التّناسب في سورة يونس عليه السلام

- أوّلاً : توطئة .

- ثانياً : مناسبة فاتحة السورة لخاتمة ما قبلها .

- ثالثاً : مناسبة خاتمة السورة لأول ما بعدها .

- رابعاً : مناسبة فاتحة السورة لخاتمتها .

- خامساً : مناسبة فاصلة الآية لمضمونها .

- سادساً : مناسبة الآية لما قبلها .

أوّلاً : توطئة

يتناول هذا الفصل مجموعة من العلاقات المتّصلة بسورة يونس (**u**) يجمعها اسم كبير هو " المناسبة " ومن هذه العلاقات : علاقة فاتحة سورة يونس (**u**) بخاتمة السورة التي قبلها وهي سورة التوبة , وكذلك علاقة خاتمتها بفاتحة السّورة التي بعدها وهي سورة هود(**u**) , وهذا يقتضي الوقوف عند عنوانين رئيسيين قبل المضي قدماً في تحليل هذه العلاقات وهما : القول في مسألة ترتيب سور القرآن وأسمائها , والتّعريف بالمناسبة مفهومها وفوائدها وقضاياها التطبيقية .

أ - ترتيب سور القرآن وأسمائها

لقد نزل القرآن الكريم على سيّدنا محمد (**r**) في ثلاث وعشرين سنة منجّماً , بناء على المناسبات التي حدثت في عهده (**r**) , وكذلك أوامر الله سبحانه ونواهيه , وقد اختلف بعض العلماء في ترتيب سور القرآن إلى ثلاثة آراء . رأي قال بتوقيف ترتيب سور القرآن من الله تعالى , ورأي ثانٍ قال : أنّ الترتيب اجتهاد من الصحابة رضوان الله عليهم. والرأي الثالث جمع بين الرّأيين بأنّ بعضه توقيفي وبعضه الآخر اجتهادي إلا أنّ أصحاب هذا الرّأي اعتمدوا على آراء القائلين بالاجتهاد في ترتيب سور القرآن . بينما ذهب جمهور العلماء إلى الرّأي الأول [١] ؛ لأن الرسول (**r**) كان يحرص على أن يضع كلّ آية في مكانها في السورة التي يحدّدها للصحابة ومن أدلّة ذلك : حديث أوس بن حذيفة : " قدمنا

١– انظر , عبّاس, فضل , إتقان البرهان في علوم القرآن ,ط١ , ١٩٩٧, دار الفرقان للنشر والتوزيع, الأردن , ٤٥٠

على رسول الله (r) في وفد ثقيف . وفي الحديث أنّ النبي (r) قال: وإنّه طرأ على حزبي من القرآن , فكرهت أن أجيء حتّى أتمّه . قال أوس : فسألت أصحاب النبي(r) كيف تحزبون القرآن ؟ فقالوا : ثلاثاً وخمساً وسبعاً وتسعاً وإحدى عشرة و ثلاث عشرة وحزب المُفصَّل وحده [١] "

وحديث عائشة رضي الله عنها :" أن النبي (r) كان إذا أوى إلى فراشه كلّ ليلة جمع كفّيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما " قل هو الله أحد " . و " قل أعوذ بربّ الفلق " . و" قل أعوذ بربّ الناس " . ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده يفعل ذلك ثلاث مرات [٢] ".

فهذه النّقول تدلّ على أنّ ترتيب سور القرآن ترتيب توقيفيّ , وأنّ الصحابة رضوان الله عليهم كانوا على علم بهذا الترتيب , ولكنّ هذا الترتيب كان محفوظاً في الصدور ولم يكن مكتوباً بين الدفتين , وإنّما كتب مفرّقاً على الجلود والحجارة وغيرها من أدوات الكتابة في ذلك الوقت .

ويضاف إلى ذلك الاختلاف في الضوابط الظاهرة التي تحكم ترتيب السور في القرآن الكريم , مما يدلّنا على أنّ القرآن بتوقيف من الله تعالى وليس من البشر , فلا يوجد ضوابط ثابتة تحكم ترتيب هذه السّور واختلافها بين الطول والقصر , وكذلك المكيّة والمدنيّة

١- ابن ماجه (ت ٢٧٣) , محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني , سنن ابن ماجه , تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي , دار الفكر , بيروت , ١ / ٤٢٧ .

٢- ابن حجر (ت ٨٥٢) , أحمد بن علي بن حجر العسقلاني , فتح الباري شرح صحيح البخاري , ط٣ , ٢٠٠٠, تحقيق:عبد العزيز بن باز ومحمد فؤاد عبد الباقي , دار السلام, الرياض, ٩ / ٧٨ .

والحروف المقطّعة وتركيبها معاً . فلو كان ترتيب القرآن اجتهاديّاً لكان هناك قاعدة رُتبت سور القرآن على أساسها [١] .

وينقل السيوطي عن أبي بكر الأنباريّ قوله : " أنزل الله القرآن إلى السماء الدنيا ثم فرّقه في بضع وعشرين , فكانت السورة تنزل لأمر يحدث والآية جواباً لمستخبر , ويوقف جبريل النبيّ (r) على موضع الآية والسورة , فاتّساق السورة كاتّساق الآيات والحروف, كلّه عن النبي (r) فمن قدّم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرآن [٢] " .

وهذا النص يشير إلى دليل آخر يقول بقطعيّة التوقيف في ترتيب سور القرآن الكريم وهو نظم القرآن الكريم , فالنّاظر في علاقة الآيات مع بعضها ومناسباتها , فإنه يكون على يقين بأنّ هذا الترتيب

ليس في قدرة البشر ولا يمكن لأحد أن يجتهد به , يقول الزركشي : " إذا اعتبرت افتتاح كلّ سُوَره (القرآن) وجدته في غاية المناسبة لما ختم به السّورة قبلها [٣] " . فالقرآن الكريم إضافة إلى إعجازه في سوره وآياته فإنّه معجز بنظمه أيضاً , خاصة أنّ موضع الخلاف في ترتيب السور هو في مكان سورتي الأنفال و التوبة وموضعهما قبل يونس , والنّظم القرآني يؤكد أنّ براءة ويونس هما في موضعهما الحقيقي كما سأثبت هذا أثناء حديثي عن المناسبة إن شاء الله .

١- انظر , فضل عباس , إتقان البرهان , ٤٥٣ .

٢– السيوطي (ت ٩١١) , جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن , الإتقان في علوم القران , ١٩٨٨, تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم, المكتبة العصرية للطباعة والنشر, بيروت, ١٧٦/١ .

٣– الزركشي (ت ٧٩٤) , بدر الدين أبو عبد الله محمد بن بهادر بن عبد الله , البرهان في علوم القرآن, ط١, ٢٠٠٧, تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا , دار الكتب العلمية , بيروت, ٤٣ .

والمهمّ هنا هو التّأكيد على أنّ دراسة النّظم القرآني في السّور القرآنية يعزّز القول بتوقيف ترتيب سور القرآن الكريم وآياته ؛ لأن هذا النظم بإعجازه وتفرّده واعتماده أساساً على مسألة الترتيب التي ألحّ عليها الجرجاني في دلائله حيث يقول : " واعلم أنّك إذا رجعت إلى نفسك علمت علماً لا يعترضه الشّك , أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب , حتى يعلّق بعضها ببعض , ويبنى بعضها على بعض وتجعل هذه بسبب من تلك [١] " . وهذا النّظم بهذه الاعتبارات هو خير دليل على أن ترتيب سور القرآن هو وقف من عند الله تعالى .

ب - علم المناسبة مفهومه وفوائده

لقد التفت علماء القرآن إلى أن كثيراً من أسرار إعجاز القرآن الكريم تكمن في العلاقات بين آيات القرآن الكريم من جهته وبين سوره من جهة أخرى , وكذلك الرّوابط التي تربط بين هذه الآيات وهذه السّور وقد جمعوا ملاحظاتهم حول هذه المسألة في علم أسموه بـ " علم المناسبة " ويقصد به : " علم يقوم على معرفة مجموع الأصول الكلّية والمسائل المتعلقة بعلل ترتيب أجزاء القرآن العظيم بعضها ببعض [٢] " .

فالآية إن لم تكن معطوفة فلا بد من دعامة تؤذن باتّصال الكلام , وهي قرائن معنوية تؤذن بالرّبط مثل التنظير , فإنّ إلحاق النظير بالنظير من شأن العقلاء [١] . فالمناسبة علم يقوم بدراسة العلاقة بين أجزاء

١-الجرجاني , دلائل الإعجاز , ٥٥ .

٢- السيوطي (ت ٩١١) , جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن , علم المناسبات في السور والآيات ويليه مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع , تحقيق : محمد بن عمر بن سالم بازمول , المكتبة المكية , مكة , ٢٧ .

السور القرآنية ودراسة نظمها والخروج بنتائج تؤيد توقيفيّة ترتيب سور القرآن الكريم .

وقلّما التفت المفسرون إلى هذا العلم على الرغم من فوائده الكبيرة , والسّبب في ذلك الدّقة العالية التي يتميز بها هذا العلم , فهو علم شريف تحرز به العقول ويعرف به قدر القائل فيما يقول ويعمل على جعل أجزاء الكلام بعضه آخذاً بأعناق بعض فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء [٢] .

ومن فوائد هذا العلم اتساق كلمات السور مع بعضها فتكون مرتبة واحدة , فلا تشتّت فكر القارئ ممّا يدعوه إلى الاستمرار في القراءة , إضافة إلى ما تعطيه من دافعية للفت انتباهه للمتابعة في القراءة دون سآمة أو ملل .

وبهذا العلم يرسّخ الإيمان في القلب ويتمكن من اللّب ؛ وذلك أنه يكشف طريقتين للإعجاز : إحداهما نظم كلّ جملة على حيالها بحسب الترتيب , والثانية نظمها مع أختها بالنظر إلى الترتيب [٣] .

وأمّا المسألة التي اعتبرها الزركشي سبباً في ابتعاد المفسرين عن الخوض في المناسبة, هو اعتماد هذا العلم على اجتهاد المفسر ومبلغ درايته بعلوم العربية والبلاغة والشريعة , وتذوّقه للأساليب وأوجه بيانها , ومبلغ رهافة حسّه لإعجاز القرآن وأسراره في اللفظ

١- انظر , السيوطي , الإتقان في علوم القرآن , ٣ / ٢٣٤ .

٢- انظر , الزركشي , البرهان في علوم القرآن , ٤١ و ٤٢ .

٣- انظر , البقاعي (٨٨٥) , برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر , نظم الدرر في تناسب الآيات والسور , ١٩٩٥, تحقيق عبد الرزاق غالب مهدي . دار الكتب العلمية , بيروت, ١ / ١١ .

والمعنى [١] ؛ لذلك تجد هذه الموضوعات التي تدرس القرآن الكريم وقضاياه البلاغية محطّ أنظار الطلبة الذين درسوا اللغة العربية وآدابها .

وينقل الزركشي عن الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام في منهج التحليل في المناسبة قوله : " المناسبة علم حسن ولكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متّحد مرتبط أوله بآخره , فإن وقع على

أسباب مختلفة لم يشترط ارتباط أحدهما بالآخر , ومن ربط ذلك فإنّه متكلف [٢] " . وهذا الكلام يتطابق

مع القرآن الكريم تطابقاً قوياً لارتباط سوره بعضها ببعض ؛ لأنّها وحي من الله سبحانه , وبذلك يكون النظم القرآني دليلاً على إعجاز الخالق سبحانه لمخلوقاته بالإتيان بمثله وكما هو معجز بألفاظه فهو معجز بترتيبه أيضاً .

١– انظر , القطان , منّاع , مباحث في علوم القرآن, ط١ , ١٩٩٢, مكتبة المعارف للنشر والتوزيع , الرياض, ٩٧ .

٢- الزركشي , البرهان في علوم القرآن , ٤٢ .

ثانياً : مناسبة فاتحة سورة يونس لخاتمة ما قبلها

يقول السّيوطي رحمه الله : " الأمر الكلّي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن , هو أنك تنظر إلى الغرض الذي سيقت له السورة , وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات , وتنظر إلى مراتب تلك المقدّمات في القرب والبعد من المطلوب , ثم تنظر عند انخراط الكلام في المقدّمات إلى ما تستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام أو اللوازم التّابعة له , التي تقتضي البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها ؛ فهذا هو الأمر الكلّي المهيمن على حكم الرّبط بين جميع أجزاء القرآن , فإذا عقلته تبيّن وجه النظم مفصّلاً بين كلّ آية وآية وفي كلّ سورة وسورة [١] " .

ويبدو أنّ السّيوطي قد رسم منهجاً في التّعامل مع آيات القرآن الكريم , وطريقة النظر إليها وتناولها عند البحث , وكيفيّة معرفة أسرار القرآن الكريم ؛ فهو منهج علميّ دقيق يفتح أمام الباحث الطريق إلى الخوض في الآيات بالتحليل في هذا الإعجاز بجميع أشكاله .

وعند إنعام النظر في خاتمة سورة التوبة في قوله تعالى " وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُواْ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُون (١٢٧) لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩) " (التوبة ١٢٧ - ١٢٩)

تبيّن الآيات أنّ الرّسول (**r**) بشر ومعروف عند المشركين , يعزّ عليه مصائبهم وآلامهم ورؤوف بهم , فهذا النبي (**r**) على ما فيه من صفات تعرفونها عنه من أصالة

١– السيوطي , الإتقان في علوم القرآن , ٣ / ٣٢٨ .

ومروءة وكرامة ولطف وإنسانيّة وأدب من نشأته إلى رجولته , فإنّه جاء منقذاً ومخلّصاً لهم ولأهلهم , وهذه هي مهمته التي أرادها له ربه عزّ وجل , فإنّ تولوا عنه وابتعدوا فهذا لا ينقص من أمره شيئا ؛ فقد وقع أجره على الله . فربّ العزة سبحانه يذكر لنا أوصاف الرّسول (r) فيصفه للناس , وكيفيّة اختياره له وما هو بالنسبة لقومه .

وجاءت أداة التحقيق" قد " لتؤكّد وجود هذه الصفات معاً في شخصيّة الرسول (r) وتيقّن قريش بها , فلم يطعن أحد منهم بصدق الرسول الكريم وأمانته ولكنّهم رفضوا الاتّباع ووضعوا العقبات أمام نبوته , فنظروا إلى الأمور الماديّة في حياة الرسول (r) لما عاشه من يتم الطفولة , فرأوْا فيه الإنسان الفقير الذي هو أقلّ منهم مالاً , ولم يعلموا أنّ هذا اليتيم سيصبح قدوة يقتدى به , سواء على مستوى ضعف الفقير وعدم إحباطه وتواضع الغني وعدم تجبّره . يقول المراغي : " لقد قاسوا الأمور بمقاييسهم الدنيوية الماديّة وليست المعنوية فقال تعالى على لسانهم [١] : " لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم " (الزخرف ٣١) .

وفي قوله تعالى " من أنفسكم " ولم يقل منكم دلالة على عمق الصّلة بينه وبين قومه, فهو بضعة من أنفسهم تتصل بهم النفس بالنفس وهي أعمق وأحس [٢] فأراد سبحانه أن يغلق عليهم الطريق في الطعن بشخصية الرسول(r) والإيمان به دون تعنت وكفر فوصفه لهم بأوصاف يعتزّون بها ويفاخرون . فالرسول (r) قد حوى من الأوصاف الحلى

١- المراغي , أحمد مصطفى , تفسير المراغي ,ط١, ١٩٩٨, تحقيق :باسل عيون السود, دار الكتب العلمية , بيروت, ١٠ / ١٩٤ .

٢- انظر, قطب, سيد ,في ظلال القرآن ,دار الشروق,بيروت ,ط٢٢ ,١٩٩٤, ٣ / ١٧٤٣

والأخلاق العلى ما يوجب الإقبال عليه والإسراع إليه والإخبار عنه وإن توليكم عنه لا يضرّه شيئاً ؛ لأن ربه كافيه سبحانه[١] .

وقد استأنف ربّ العزّة سبحانه الحديث عن هذا الموضوع في فاتحة سورة يونس (**u**) حيث قال جل وعلا : " الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (١) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ (٢) إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ (٣) " . (يونس ١-٣) .

وجاء العجب هنا ردّة فعل على رفض بعض أهل قريش رسالة محمد (**r**) مع كل ما يتميّز به من صفات يصعب توافرها عند كثير من الناس , بل يسعى كلّ إنسان إليها ليتصف بها , فلم يجدوا لهم مخرجاً

لانتقاد الرسول (**r**) سوى بشريّته بعد عجزهم من مسألة فقره , فكأنّهم يتخبّطون فيما يذهبون إليه فتعجبوا من بشريته وأرادوه ملكاً من الملائكة مع أنهم على علم بأنّها عادة بعث الرسل بأنّ يكونوا بشراً كأقوامهم . يقول الخازن في تفسيره : " ولو كان الرسول (**r**) من الملائكة لضعفت قوى البشر عن سماع كلامه والأخذ عنه [٢] ". فهذه الحجج استخدمها الكفار حتى يثبتوا لأنفسهم المريضة , ويحاولوا إقناعها بعدم الإيمان ودخول الإسلام .

١- البقاعي , نظم الدرر , ٣ / ٤٠٧ .

١- الخازن (ت ٧٢٥) , علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن, تفسير الخازن المسمي لباب التأويل في معاني التنزيل ,ط١, ١٩٩٥, تحقيق : عبد السلام محمد شاهين , دار الكتب العلمية بيروت, ٣ / ٢١٧ .

ولفت موضوع تعجّب الكافرين من بشرية النبي (r) أنظار المفسرين ليدافعوا عن النبي (r) ورسالته , ليجدوا به ضعفاً في عقلية هؤلاء الكافرين . فيقول الشعراوي معلقاً على تعجّب الكافرين " إنّ عجبكم هذا يدل على أنّ بصيرتكم غير قادرة على الحكم على الأشياء , وما كان يصحّ أن يستقبل الرسول (r) بالعجب ونحن نتعجّب من عجبكم هذا ؛ لأنه أمر منطقي وطبيعي [١] " , وكان يجدر بهم المسارعة إلى الإيمان .

ويقول المراغي ردّاً على عجبهم هذا من بشّرية الرسول (r): " هذا عجب عاجب لأن بعث الملك إنما يتسنّى إذا كان المبعوث إليهم ملائكة كما قال تعالى منكراً عليهم ذلك [٢] " قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنّين لنزّل عليهم ملكاً رسولاً". (الإسراء ٩٥) وربّ العزة سبحانه يعجب من طريقة تفكيرهم عندما أرادوا ملكاً رسولاً والعجب حقّاً هو كيف سيتم التواصل فيما بينهم ,وكيف سيكون القدوة لهم في العبادات والمعاملات وهو ليس من جنسهم ,فهذا مما يتطلب أن يقف عليه الإنسان متعجّباً .

وقد جاء قوله تعالى " من أنفسكم " متناسباً مع قوله في فاتحة سورة يونس " رجل منكم " ليؤكّد سبحانه بشرية الرسول (r) وردّاً على ما استهجنوه في سورة يونس من مجيء النبيّ بشراً وليس ملكاً من الملائكة , فخاتمة سورة التّوبة مهدت الطريق لإثبات بشرية الرسول (r) وطبيعته ليقرّر هذا المعنى عند الكافرين ؛ ليأتي الرد على كفرهم وإبطاله في بداية سورة يونس . ولم يصرّح سبحانه بوصف الكافرين في خاتمة سورة التوبة فقال عنهم : " فإن تولوا فقل ... " تلطّفاً في الدعوة, بينما صرّح بوصفهم بالكافرين في فاتحة سورة يونس بعدما تولوا وأعرضوا فقال تعالى : " وقال الكافرون إن هذا لساحر مبين " .

١- الشعراوي , محمد متولي , خواطر حول القرآن الكريم , ١٩٩١, دار أخبار اليوم , القاهرة, ٩ / ٥٦٥٣ .

٢- المراغي , تفسير المراغي , ١٠ / ١٩٩ .

وتناولت فاتحة سورة يونس البشارة للمؤمنين الذين آمنوا برسالة محمد (r) , وقد جاءت تأكيداً عمّا ذكره سبحانه في خاتمة سورة التّوبة في قوله : " حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم " , فالمؤمن في عناية الله ورحمته ؛ ليأتي التوافق والانسجام بينهما .

وقد أشار سبحانه في سورة يونس في قوله : " تلك آيات الكتاب الحكيم " إلى مضمون ما جاء في خاتمة التوبة في قوله تعالى : " وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض ... " , فهذه الآيات التي أنزلت إليهم وكانوا يعاندونها هي آيات الكتاب الحكيم , فجاء التناسب في إثبات الحكمة والعلم على آيات الله ونفي العلم والمعرفة عن الكافرين بقوله : " صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون " .

وجاء التّناسب في الإشارة إلى موقف النجاة للمؤمنين في خاتمة سورة التوبة يجمل صفات الله تعالى في قوله : " فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ " . حيث جاء تفصيل ذلك في فاتحة سورة يونس .

وهكذا يكون التناسب بين خاتمة سورة التوبة وفاتحة سورة يونس واضحاً جلياً في أكثر من جهة , فجاء التّناسب دلالياً من حيث الإجمال والتفصيل والخصوص والعموم , ثم أسلوبياً من حيث المضمون فكان الموضوع واحداً وهو الإيمان بالله وحده , ثم جاء التّناسب تركيبياً , وأبرز مظاهره الترابط الإحالي بين الموضعين ؛ فهناك إحالة إشارية عن طريق اسم الإشارة " تلك " التي تشير إلى كتاب الله تعالى , وهناك إحالة إشارية عن طريق " هذا " التي تشير إلى الرسول (r) في خاتمة سورة التوبة , وهناك إحالة موصولية في قوله " الّذين " , وهناك إحالة ضميرية عن طريق الضمير هم في قوله : " منهم " .

وهناك تطابق في الذوات ؛ فالآية في سورة يونس اشتملت على عدة عناصر مثل : لفظ الجلالة " الله " عز وجل , والكتاب بآياته وسوره , والنبيّ الكريم (r) , والمؤمنين والكافرين . حيث نجد العناصر ذاتها في سورة التوبة .

ثالثاً : مناسبة خاتمة سورة يونس لفاتحة ما بعدها

لقد ختمت سورة يونس (**u**) بقوله : " قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلاَ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (١٠٨) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىَ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩) " . (يونس ١٠٤ - ١٠٩)

ولا يخفى ما في هذه الآيات من الموعظة الحسنة , وتسلية النبي (**r**) ووعد للمؤمنين والوعيد للكافرين . وقد تناولت الآيات الحديث عن أمرين رئيسين هما : الشرك بالله والإيمان بقضاء الله وقدره والصبر عليه وكان الحديث عنهما موجزاً ومطمئناً للنبي (**r**) . وقد جاء النداء في هذه الآيات للناس كافة دلالة على أنّ هذا النداء لم يكن للعرب فقط , إنّما جاء لجميع الناس من العرب والعجم , وقد استخدم معه أداة النداء " يا " الدالة على النداء للبعيد لتتطابق مع المعنى الذي تتضمّنه كلمة الناس التي تجمع البشر كلّهم على تعدد أماكنهم وأزمانهم وطوائفهم ؛ فكلّ من يسمع النداء فهو معنيّ بهذا الكلام, وأول هذه المحظورات هو الشرك بالله وهو الأمر المتوقف عليه دخول الجنة والنار , فهو أمر مصيري لحياة الناس جميعاً واتباع الوحي هو طريق الخلاص من هذا الشرك .

وأمّا الأمر الآخر الذي تناولته الآيات فهو الإيمان بقضاء الله وقدره والصبر عليه , فقد ركزت الآيات الكريمة على حقيقة الإيمان بالقدر , وكأنّه سبحانه يطمئن الرسول والذين

اتبعوه بأن الدين لله وهذا الدين هو دين هداية لا ضلال فمن أراده وسار على نهجه فإنّه سينفعه في الدنيا والآخرة , ومن نبذه فسيكون ظالماً لنفسه وخاسراً للدنيا والآخرة . وقد حثّ الله تعالى الرسول (r)في هذه الآيات على الكتاب ولزومه والصبر على ما يتعقّب ذلك من مرائر الصبر المؤدية إلى مفاوز الخير اعتمادا على المتصف بالجلال والكمال والكبرياء [١].

فكلّ ما يصيب الإنسان هو بيد الله سبحانه ؛ فإنّ كان خيراً أو شرّاً فكلّه بيد الله هو الضار والنافع وهو المتّصف بصفات الكمال . وقد كان الرسول الكريم على وعي تام بهذا الأمر لقوله (r) لابن عباس: " واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك , ولو اجتمعوا على أن يضرّوك بشيء لم يضرّوك إلاّ بشيء قد كتبه الله عليك ,رفعت الأقلام وجفت الصحف [٢]". ولأنّ هذا الخير والهداية والضرر هي للإنسان نفسه كان يجب على الإنسان أن يكون صابراً على ما يصيبه لذلك جاء الحثّ في نهاية الآيات على الصبر على ما يصيب الإنسان من متاعب وهموم في مواجهة قدره , فكلّ هذه الظروف سيكون فيها الخير والهداية له في الدار الآخرة .

فأشارت خاتمة سورة يونس إلى الأمر باتباع الوحي ونفي الشرك دون تفصيل , وأمّا فاتحة سورة هود فقد تناولت بيان الوحي وتفصيله والتحذير من الشرك فجاءت هذه الفاتحة لسورة هود متضمّنة التفصيل في الحديث عن هذين الأمرين : الوحي والشرك بشكل موسّع ؛ وذلك لأهمّيتهما في أمر الوحدانية لله فاختتمت سورة يونس بنفي الشرك واتّباع

١- انظر , البقاعي , نظم الدرر , ٣ / ٤٩٦ .

٢- الترمذي(ت ٢٧٩) , محمد بن عيسى أبو عيسى , الجامع الصحيح سنن الترمذي , تحقيق : أحمد محمد شاكر , دار إحياء التراث العربي , بيروت , ٤ / ٦٦٧ .

الوحي وافتتحت سورة هود ببيان الوحي والتحذير من الشرك [١] . فتكون العلاقة بينهما علاقة الإجمال والتفصيل التي أشار علماء القرآن إليها .

ويقول تعالى في مفتتح سورة هود : " الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤) أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥) " . (هود : ١ - ٥)

يقول المراغي في حديثه عن سورة هود : " وقد فصل فيها ما أجمل في سابقتها من قصص الرسل عليهم السلام , وهي مناسبة لها في فاتحتها وخاتمتها وتفصيل الدعوة في أثنائها وهي أن الرسول (r) مهمته الإبلاغ والتبشير والإنذار . وعلى الجملة فقد أجمل في كل منها ما فصل بالأخرى مع فوائد انفردت بها كل منهما فقد اتفقتا موضوعا في الأكثر واختلفتا نظما وأسلوبا , مما لا مجال للشك في أنهما من كلام الرحمن الذي علّم الإنسان البيان [٢] " .

وقد جاءت نظرة المراغي نظرة عامّة إلى السورتين من حيث الموضوعات التي تعالجها كقصة نوح(u) مثلاً , فقد جاءت موجزة في سورة يونس بينما جاءت مفصلة في سورة هود (u) فقد أمر الله سبحانه الرسول (r) في خاتمة سورة يونس بالصبر حتى يحكم الله تعالى بينه وبين الكافرين وقد جاء في بداية هود انتظار هذا الحكم منه تعالى مع الاستقامة

١- انظر , الألوسي , روح المعاني , ٤ / ١٩٠ .

٢– المراغي , تفسير المراغي , ١٠ / ٢٨٦ .

على عبادته والتوكل عليه . وجاءت قصة نوح(u) في سورة يونس موجزة حيث جاء الاكتفاء بثلاث آيات فقط تتضمن مواساة الرسول(r) وعدم يأسه من الدعوة , بينما جاءت قصته(u) مفصلة بشكل كامل في سورة هود في ثلاث وعشرين آية , ممّا يدل دلالة واضحة على التوافق والانسجام بين السورتين والنظم القرآني بينهما ممّا يجعلهما مترابطتين ترابطاً قوياً .

وعند النظر إلى كل من خاتمة سورة يونس وفاتحة سورة هود يلاحظ التوافق في عدة أمور منها قوله تعالى في سورة يونس : " واتّبع ما يوحى إليك " فالحديث هنا حول القرآن الكريم الذي يعدّ منهج الإسلام والمسلمين إلى قيام الساعة ؛ فجاء الحث على اتّباعه . وفي بداية سورة هود بيّن سبحانه في قوله : " كتاب أحكمت آياته " أنّ هذا القرآن ليس كأيّ كلام, بل هو كلام محكم فيه منهج من سار عليه واتبع أوامره فاز في الدنيا والآخرة, وقد جاءت الفاصلة بينهما متناسبة أيضاً , فقد جاءت في خاتمة سورة يونس بقوله تعالى " وهو خير الحاكمين " وفي سورة هود في قوله تعالى " حكيم خبير " ؛ لإثبات العدل والحكمة لله سبحانه .وفي موضع آخر يقول تعالى في خاتمة سورة يونس :"قل يا أيّها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ", فجاء النداء للناس كافّة للاختيار بين عبادة الله واتّباع طريق الحق والهدى, وبين اختيار طريق الضلال

والكفر فوضّح سبحانه الطريقين أمام الناس كافّة . وفي خاتمة سورة هود فقد دعا سبحانه إلى الطريق الصحيح ؛ وهو عبادة الله واتباع أوامره واجتناب نواهيه في قوله تعالى : " ألا تعبدوا إلا الله " . حيث بيّن سبحانه في خاتمة سورة يونس في قوله تعالى : " فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضلّ فإنما يضلّ عليها " أنّ الهداية والضلال عاقبتهما على الإنسان نفسه ؛ لتأتي فاتحة سورة هود (u) تبيّن مهمة الرسول (r) في قوله " بشير ونذير " بأنّه

مبلّغ لكلام الله ومبيّن لطرق الهداية والضلال , ولا يجبر أحداً على الإيمان فاختار سبحانه الأسلوب المؤدّب لترغيبهم في الإيمان .

وهكذا يتّضح التناسب الكبير بين السورتين , يقول البقاعي في خاتمة سورة يونس : " وقد ختم الله سبحانه السورة بما ابتدأها به من أمر الكتاب , والإشارة إلى الإرشاد لما ينفع من ثمرة إنزاله وهو العمل بما دلّ عليه أو أشار إليه , إلى أنّ يتجلّى الحكيم الذي أنزله للحكم في الدنيا أو في الآخرة بما لا مرد له مما برزت به مواعيده الصادقة في كلماته التّامة. وهذا بعينه هو أول الذي بعدها - يقصد هود - فكان ختم هذه السورة وسطا بين أوّلها وأوّل التي تليها [١] " .

وأمّا سيّد قطب فقد نظر إلى السورتين : يونس وهود من حيث مكيّتهما وما تميّز به القرآن المكّي عن القرآن المدني , والقضايا التي يتناولها القرآن المكّي كما في تركيزه على توحيد الله تعالى والإيمان بقضائه وقدره وتعريف الناس بربّهم الحق الذي ينبغي أن يدينوا له وينبذوا ما دخل على العقيدة الصحيحة من غبش وانحراف [٢] . فهذه هي الموضوعات التي سيطرت على القرآن المكّي وذلك لما تميّزت به من تمهيد للدعوة , وجذب قلوب الناس إليها والإذعان لله تعالى والتزام أوامره واجتناب نواهيه.

فهذا بالنسبة للموضوعات التي تناولها القرآن المكّي . أمّا أسلوب العرض فقد كان كما بيّن سيّد قطب , بأنّه أسلوب موح عميق الإيقاع بالغ التأثير؛ حيث تشترك في أداء هذا العرض خصائص التعبير من البناء اللفظي إلى المؤثّرات الموضوعية [٣] ؛ فكان لابدّ في بداية الدعوة من أسلوب لطيف في مخاطبة الناس حيث أنّ موضوع تغيير الدين ليس من

١- البقاعي , نظم الدرر , ٣ / ٤٩٧ .
٢- انظر , سيّد قطب , في ظلال القرآن , ٣ / ١٧٤٥ .
٣- انظر , السابق , ٣ / ١٧٤٥ .

الموضوعات التي يسهل على الإنسان التعامل معها وتغيير عقيدته وعقيدة آبائـــه وأجـــداده ؛ فهي تحتاج إلى أسلوب تستشعره القلوب ويكشف الحقائق بطرق مقنعة وواضحة تلفت انتبـــاه القلوب والعقول لإقناعها ؛ حيث يقول تعالى مخاطباً الرسول (r) : " فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّـــنَ اللَّـــهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَـــاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِين"(العمران ١٥٩)

رابعاً : مناسبة فاتحة سورة يونس لخاتمتها

جاء افتتاح السورة بالإشارة إلى القرآن الكريم فوصفته بالحكمة إضافة إلى البشارة للمؤمنين وتعريفهم بربهم الواحد , فهو الشفيع وهو مدبر الأمور لا رب سواه يعبد , كما في قوله تعالى : " الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (١) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَـذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ (٢) إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُون "

(يونس ١ – ٣)

وجاءت خاتمة السورة تبيّن الطريق أمام الناس جميعاً . طريق الهداية وطريق الضلال وكلا الطريقين باختيار الإنسان نفسه , وربّنا عزّ وجل هو الذي سيحكم في النهاية, وهي محصّلة ما جاء من الأدلة والبراهين والترغيب والترهيب في السورة كاملة , كما في قوله تعالى : " قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (١٠٨) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىَ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ " (يونس ١٠٨ – ١٠٩)

وجاء النداء لاستدعاء سماع الناس بأنّ ما سيأتي أمر في غاية الأهميّة وهو مصيري بالنسبة لهم , وقد ناسب العجب الذي جاء منهم في فاتحة السورة من نبوة محمد(**r**) فجاءت أداة الحصر " فإنّما " لتؤكّد أنّ ما جاء به محمّد(**r**)هو الحق ؛ فقبول الإيمان أو رفضه أمر

عائد إلى اختياركم , وجاءت الجملة الإسمّية في قوله تعالى:" وما أنا عليكم بوكيل " بالنفي دلالة على دوام انتفاء ذلك الحكم وثباته في سائر الأحوال [١].

وقد ناسب سبحانه بين قوله : " فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه " مع قوله تعالى : " وبشّر الذين آمنوا أنّ لهم قدم صدق عند ربهم " فكانت البشارة للمؤمنين في أوّل السورة هي نتيجة الهداية في آخرها , إضافة إلى المنزلة العالية التي عبّر عنها سبحانه بـ " قدم صدق "

وجاء الأمر باتّباع الوحي في خاتمة السورة بقوله : " واتبع ما يوحى إليك " وهو القرآن الكريم الذي وصفه في فاتحتها بالحكمة في قوله تعالى : " تلك آيات الكتاب الحكيم " طمأنة للرسول(**r**) بأنه على طريق الحق والهدى , وقد أمره سبحانه بالتحلي بالصبر في قوله : " واصبر حتى يحكم الله " رداً على الكافرين عند اتهامه بالسحر الباطل في بداية السورة في قوله : " وقال الكافرون إنّ هذا لساحر مبين " تشويهاً للرسول (**r**) للحد من استمراره في الدعوة .

وقد ختمت السّورة بقوله تعالى : " واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين " وحتى هنا تفيد انتهاء الغاية للصبر , حيث يتجلى الحكيم سبحانه ليحكم بين المؤمنين والكافرين , وهو وعد للنبي (**r**) بأنّه سيغلبهم . ويقتضي ذلك قوّة اللفظ في الآية , فالله تعالى هو خير حاكم يحكم بين الناس [٢] .

١- انظر , ابن عاشور , محمد الطاهر , تفسير التحرير و التنوير , الدار التونسية للنشر, ١٩٨٤, ١١ / ٥٠٩ .

٢– انظر , ابن عطية(ت ٥٤٢) , لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي , المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز, ط ١ , تحقيق : عبد السّلام عبد الشافي محمد , دار الكتب العلمية, بيروت, ٢٠٠١ , ٣ / ١٤٧ .

ومن ناحية التركيب فقد جاء التعبير في فاتحة السورة وخاتمتها باستخدام الجمل الإسمّية , مما يعكس الثبات والديمومة لوحدانية الله , واتباع سبل الهداية والرشاد ونبذ الشرك والمشركين , إضافة إلى التوكّيد وصيغ الأمر المستخدمة في فاتحة السورة وخاتمتها.

خامساً : مناسبة فاصلة الآية لمضمونها

الفاصلة كلمة آخر الآي , اختصّ بها القرآن الكريم ليفصّل بها بين الآيات , فيحسن الكلام بها وتقع عند الاستراحة في الخطاب [١] .

و تتّضح لنا من خلال الفاصلة عظمة الخالق سبحانه في اختيار الألفاظ ؛ لتكون معجزة لأهل هذه اللغة وفصحائها . فكما تكون الفواصل متّفقة في اللفظ , فإنّها أيضاً تؤدي دوراً معنوياً وليس لفظياً فحسب . فهناك دقّة كبيرة في اختيار ألفاظ الفاصلة حيث أنّه لا يصح أن يكون هناك لفظة أخرى مكانها وبالتالي قد تستقيم لفظا وموسيقى صوتية مع أخواتها إلا أن معناها سيكون مبتذلاً ؛ فكلّ لفظة وضعت لغاية وهدف تؤديه دون غيره وبالتّالي يكون الإعجاز في الفاصلة القرآنية على المستويين المبنى والمعنى . ويقول عدنان زرزور " إنّ أدقّ ما يوصف به هذا البناء بأنّه محكم . ويضيف ... إنّ الفاصلة تقوم بدورها في إحكام بناء الآية في الشكل والمضمون أو في المبنى والمعنى[٢] ".

ولا ضير أن يجتمع مع هذا الغرض المعنوي ما يتّصل بجمال اللفظ وبديع الإيقاع حيث تمهد الفاصلة للحفظ إضافة إلى أثرها الموسيقي في النفس , وأسلوب القرآن فيه هذه الموسيقى المؤثرة , ومن أجلها حدث في نظم الآي ما يجعل هذه المناسبة أمراً مرعياً [٣] .

وهذا التوافق بين الفاصلة ومضمونها يسمّيه العلماء باسم " تشابه الأطراف " , وهو أن يبتدئ المتكلم كلامه بمعنى ثم يختمه بما يناسب ذلك المعنى الذي ابتدأ به , وبذلك يكون

١- انظر , الزركشي , البرهان في علوم القرآن , ٥٠ و ٥١ .
٢- زرزور , عدنان , القرآن ونصوصه ,مطبعة خالد بن الوليد, دمشق , ١٩٨٠ , ٢٣٨
٣- انظر , عباس , فضل , سناء فضل عباس , إعجاز القران الكريم, ١٩٩١ , عمان, ٢٢٦ .وانظر , بدوي , أحمد , من بلاغة القرآن , ١٩٥٠ , دار النهضة للطبع و النشر , القاهرة , ٨٧ .

الكلام متناسباً سواء كان أحدهما في الختم والآخر في الابتداء [١] . ولا يخفى ذلك على المرء الذي يعرف لغته ؛ فهناك روايات تدلّ على معرفة الصحابة رضوان الله عليهم بفواصل الآيات القرآنية قبل أن يمليها عليهم النبي(r) أو حين يسمعونها من بعضهم , ومن ذلك ما روي عن زيد بن ثابت أنّه قال : أملى عليّ رسول الله(r) هذه الآية : " لقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين , ثمّ جعلناه نطفة في قرار مكين , ثم خلقنا النطفة علقة , فخلقنا العلقة مضغة , فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً " وهناك قال معاذ بن جبل : " فتبارك الله أحسن الخالقين " فضحك رسول الله (r) , فقال معاذ : ممّ ضحكت يا رسول الله قال : بها ختمت[٢] ؟! .

وقد سمع بعض الأعراب قارئاً يقرأ " والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله غفور رحيم " فقال الأعرابي : ما هذا فصيح فقيل له : ليست التلاوة كذلك وإنما " والله عزيز حكيم " فقال : بَخٍ , بَخٍ , عزّ فحكم فقطع [٣] .

ويتّضح مما سبق من خلال الشبكة الدلالية التي يقوم عليها تشابه الأطراف وهي:

١- انظر , المدني (ت١١٢٠) , ابن معصوم علي صدر الدين , أنوار الربيع في أنواع البديع, ط١, ١٩٦٨ , تحقيق : شاكر هادي شاكر , مطبعة النعمان , بغداد , ٢ / ١٩٥ . القزويني (ت٧٣٩) , جلال الدين محمد بن عبد الرحمن , الإيضاح في علوم البلاغة , ط٥, ١٩٨٣, تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي , دار الكتاب اللبناني , بيروت , ٤٩٠, وكتاب تلخيص المفتاح في المعاني والبيان والبديع , ٢٠٠٢, تحقيق : ياسين الأيوبي , المكتبة العصرية , بيروت , ١٧٨ .

٢- السيوطي , الإتقان في علوم القرآن , ٣ / ١٤ .

٣- أبو حيان (ت٧٤٥) , محمد بن يوسف , تفسير البحر المحيط, ط١ , ١٩٩٣, تحقيق : زكريا عبد الحميد, علي محمد معوض , عادل أحمد عبد الموجود , أحمد النجولي الجمل , عبد الحي الفرماوي , دار الكتب العلمية , بيروت, ٣ / ٤٩٥

تشابه الأطراف (+ لفظ) , (+ معنى) , (+ مناسبة بينهما)

(+ أول الكلام) , (+ خاتمة الكلام) , (+ مناسبة بينهما)

تتّضح قدرة العربي على إدراك سرّ الفاصلة القرآنية ومعرفة العلاقة بين التراكيب , وفهم دلالاتها لمعرفة المناسبة بين أوّل الكلام وخاتمته وذلك بفطرته السوية من أوّل مرة يسمع بها الكلام , وليس ذلك فحسب بل الاعتراض على القراءة المغايرة ورفضها , كما حدث مع الأعرابي , ممّا يدلّ على تمكنه من لغته إلى حدّ بعيد [١] .

وتدلّ هذه الروايات على الأهمّية الكبرى للمعنى في اختيار الفاصلة ؛ فالصحابة رضوان الله عليهم فهموا القرآن وأدركوا أنّ هذا القرآن ليس من صنع البشر , وإنّما هو كلام معجز لا يقدر عليه أحد ويفهم ذلك من ردة فعل الأعراب عند سماعهم لخاتمة الآيات, فلم تكن الفاصلة ترتيباً لفظياً حسب . ويقول فاضل السامرائي : " إنّ القرآن الكريم لا يعنى بالفاصلة على حساب المعنى , ولا على حساب مقتضى الحال والسياق , بل هو يحسب لكل ذلك حسابه ؛ فيختار الفاصلة مراعياً فيها المعنى والسياق والجرس وخواتم الآي وجوّ السورة , وكلّ الأمور التعبيرية والفنية الأخرى [٢] " ؛ ولأجل ذلك رأى فيه العرب شيئاً ليس من صنع البشر فآمنوا به فكان معجزة محمد (**r**) .

ومن الأسرار الأخرى للفاصلة في القرآن الكريم أنّها تنتهي غالباً بحروف المد , ولا يخفى ما في المد من خروج للنفس بعد الكلام المتواصل , والذي يعطي راحة نفسيّة للقارئ ممّا يدفع إلى الاستمرار في القراءة . وتحسّ عندما تستمع القرآن أو تتلوه أنّ لهذه

١– انظر , عيّاش , ثناء نجاتي , تشابه الأطراف في القرآن الكريم سورة الأنفال نموذجاً, المجلة العربية للعلوم الإنسانية , العدد ٢٣/٩ , ٢٠٠٥,مجلس النشر العلمي , جامعة الكويت, ١٢٣ .

٢– السامرائي , فاضل , التعبير القرآني , ط ٣ ,٢٠٠٤ , دار عمار , عمان , ٢٣٦

الفواصل نغمات نفسيّة معنويّة وإيقاعاً يعطيك متعة فنيّة مؤثرة تبثّ في فؤادك الطمأنينة والارتياح [١] .

وينقسم تشابه الأطراف إلى قسمين : تناسب واضح ظاهر , وآخر خفيّ يحتاج إلى الدّقة والتّأمل في النصّ القرآني [٢] . ومن أمثلة التناسب الخفي في سورة يونس قوله تعالى " هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُون " (يونس٥) لقد جعل سبحانه الشمس ضياء وخصها بهذه اللفظة بينما خصّ القمر بلفظة النور ؛ لأنّ الشمس تنفع الناس بضيائها وللقيام بأعمالهم اليومية المختلفة , وجعل القمر نوراً وهو أعمّ من الضياء ويصدق على الشعاع الضعيف والقوي ؛ فضياء الشمس نور ساطع قويّ ونور القمر ليس بضياء ؛ لينتفع به على قدر الحاجة التي تعرض لطلب رؤية الأشياء في وقت الظّلمة وهو الليل ؛ فجاء نوره أضعف من نور الشمس حتى ينتفع به بقدر ضرورة المنتفع؛ فإذا لم يضطر للانتفاع به لا يشعر بنوره ولا يصرفه عن سكونه الذي جعل الظلام سبباً له [٣] .

وقد ختمت الآية بقوله تعالى " يعلمون " والعلم هنا صفة لهؤلاء المخاطبين , وقد جاء الحديث عن الشمس والقمر ودورهما في معرفة حساب الوقت للإنسان . فالشمس تعرف بها الأيام من ليل ونهار ومواقيت الصلاة للمسلم وكذلك تسيير شؤون الحياة المختلفة , يقول تعالى : " هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ

١- انظر , عتّر , حسن ضياء الدين , بينات المعجزة الخالدة , ط١, ١٩٧٥,دار النصر , سوريا, ٢٥٥ .

٢– انظر , ابن معصوم المدني , أنوار الربيع في ألوان البديع , ٤ / ١٩٥ .

٣- انظر , ابن عاشور , التحرير والتنوير , ١١ / ٩٤ .

يَسْمَعُونَ " . (يونس ٦٧) فجاء السمع هنا تعريضا بأن الذين لم يهتدوا بها وتفطنوا لـدلالتها بمنزلة الصم الذين لا يسمعون [١]

وجاء الحساب في الآية خاص بالقمر لعودة الضمير في " قدره " عليه ؛ فالحساب حساب القمر لأنّ السّنة الشرعيّة قمرية فقال تعالى : " لتعلموا عدد السنين " وللشمس حساب آخر هو حساب الفصول .فمن معرفة الليالي تعرف الأشهر وبمعرفة الأشهر تعرف السّنة ومن ذلك ضبط أمور الناس وأسفارهم وهو أصل الحضارة [٢] .

وأما القمر ففيه يعرف الإنسان عدد شهور السنة ؛ فوصل سبحانه به قوله : " ما خلق الله ذلك إلا بالحق " , دلالة على أنّ هذه الأمور لا تحتاج إلى كثير من العلم ؛ لاتّسامها بالوضوح فجاء ختم الآية بقوله تعالى : " نفصل " دلالة على ذلك [٣] . وقد دلّ الحصر على كلمة الحق في قوله : " إلاّ بالحق " على الحكمة والدّقة في تقدير الأمور والمواقيت , فكلّها مخلوقة على نظام واحد فلا تطغى الأوقات على بعضها .

وتبدو هنا الأهميّة الكبرى للشمس والقمر في حياة الناس واضحة جليّة في معرفة الأيام والشهور والمواقيت وحساباتها التي تحتاج إلى معرفة وعلم واسعين , فجاءت الفاصلة تدلّ على الصفة التي يحتاجها مضمون الفاصلة , وهو العلم والمعرفة فانتهت بقوله تعالى : " لقوم يعلمون " فعبّر بالفعل المضارع دلالة على تجدّد العلم لمن هو دأبه وأهله , فإنّ العلماء أهل العقول الراجحة وهم أهل الانتفاع بالأدلّة والبراهين ودلّت كلمة " قوم " على رسوخ وصف العلم فيهم فكان من مقومات قوميتهم , وهو تعريض بأنّ الذين

١– انظر , ابن عاشور , التحرير والتنوير, ١١ / ٢٢٨ .
٢- انظر , السابق , ١١ / ٩٦ .
٣– انظر , البقاعي , نظم الدرر , ٣ / ٤١٨ .

لم ينتفعوا بتفصيل الآيات ليسوا من الذين يعلمون ولا ممّن رسخ فيهم العلم [١]

ومن مواضع التناسب الخفي في الفاصلة قوله تعالى : " وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُـرُونَ مِن قَـبْلِكُمْ لَمَّـا ظَلَمُواْ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَلِكَ نَجْـزِي الْقَـوْمَ الْمُجْـرِمِينَ" (يونس ١٣) . وقوله تعالى : " فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِـهِ إِنَّـهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ " (يونس ١٧)

لقد اختتمت الآيتان بصفة واحدة وهي (الإجرام) وقـد جـاءت مناسـبة لمـضمون الآيتين. فكلتاهما يتحدّث عن الظلم , فالآية الأولى تحدّثت عن ظلم النفس بردّها عن طريق الله سبحانه إلى الكفر . وجاء قوله : " بالبيّنات" دلالة على إفراطهم في الظلم وتنـاهيهم فـي المكابرة , أي ظلموا بالتكذيب وقد جاءتهم رسلهم بالآيات البيّنة الدالة على صدقهم [٢] . ويعدّ هـذا إجراماً بحق أنفسهم وجاء هذا الوصف لهم بعد نفي الإيمان عنهم مقترناً بلام الجحـود ,دلالة على نفي الإيمان واليأس من وقوعه في قلوبهم واستجابتهم له.

أمّا الآية الثانية فالظلم كان بتكذيب آيات الله سبحانه , يقول البقـاعي : " فقـد كـذّبوا بالآيات بعد ثبوت أنّها من عند الله والإعلام بأنّه لا أحد أظلم منهم ؛ لأنّهم كذبوا على الله في كل ما ينسبون إليه مما نهى عنه , وكذبوا بآياته [٣] " . وعلى الرغم مـن كثـرة الـدلالات والمعجزات والبراهين على وحدانية الله التي دلّت عليها لفظتي " آيات " و " بيّنات " للدلالـة على صفة الوضوح التي امتازت بها هذه المعجزات ؛ فقد كان التكذيب والجحود . فجـاءت كلمة الإجرام في الموضعين بصيغة اسم الفاعل دلالة على ثبات هذه الصفة بحق من ارتكب مثل هذا الجرم بحق الله سبحانه .

١- انظر , ابن عاشور , التحرير والتنوير , ١١ / ٩٧ .
٢- انظر, الألوسي , روح المعاني , ٤ / ٧٧ .
٣- البقاعي , نظم الدرر , ٣ / ٤٢٦ .

وجاء التوكيد بقوله تعالى : " إنّه لا يفلح المجرمون " لنفي الفلاح عنهم , وجاء هذا التوكيد بعد نفي الإيمان عنهم بإنكارهم الآيات في الآية الأولى التي حاولت إقناعهم بالإيمان , وتحدّثت الآية الثانية عن إنكارهم الآيات ثمّ نفت الفلاح عنهم .

لقد نفت الآية الأولى عنهم الإيمان , وأكّدت ذلك بلام الجحود الدّالة على اليأس منهم؛ فجاء النفي مؤكّداً بها , وتحدّثت الآية الثانية عن إنكارهم لآيات الله التي حاولت إقناعهم , فنفى سبحانه الفلاح عنهم في خاتمة الآية وأكد ذلك بأداة التّوكيد " إنه " ليستحقّوا الوصف بالإجرام في الآيتين الأولى والثانية .

وجاء التناسب الخفي أيضاً في قوله تعالى : " إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ " (يونس ٢٤)

وجاءت الفاصلة بالصفة " يتفكّرون " لتتطابق مع مضمون الآية قبلها , فربّ العزة سبحانه يضرب مثلاً للناس على الحياة الدنيا , كأنّها أرض يابسة سقاها المطر فأنبتت زرعها وأخذت تتزيّن وتتجمّل , حتى أصبح الناس متأكّدين من قطف ثمارها , فلا شيء يمنعهم منها . فإذا بأمر من الله يجعلها حطاماً لم يبق منها شيء وكأنها لم تكن مخضرة من قبل .

وشبّه ربّ العزّة سبحانه الدنيا في سرعة انقضائها وانقراض نعيمها , بحال نبات الأرض عند جفافه وذهابه حطاماً بعدما كان مخضرّاً ومزيّناً . ولشدّة التطابق بين هذه الحالة وقيام الساعة ؛ ازداد عجب السامع من حسن تفصيله بعد تأصيله , فجاء سبحانه بخاتمة " يتفكّرون " على وجه الاستمرار بالفعل ؛ لأن هذه المشاهد عبارة عن علامات يستدلّ بها

المتفكّر فيها على أحوال الحياة الدنيا حالاً ومآلاً [١] . فسبحانه يضرب لهم مثلاً مرئياً محسوساً ليقرّب الصورة إلى أذهانهم ليكون التأثير أشدّ في نفوسهم , فالقادر على فعل هذا في الدنيا قادر على فعله في الآخرة .

وقد جاء تفصيل الحديث في الصورة الأولى وهي صورة التزيّن والازدهار للأرض؛ لأنّ الإنسان يراقبها كلما زاد جمالها زادت فرحته بها وانبهاره بروعتها , فكل يوم أجمل من سابقه . بينما جاء الاختزال في الصورة المقابلة , وهي صورة الدمار والغضب في لفظة " حصيداً " والحصيد في لسان العرب هو أَسافل الزرع التي تبقى ولا يتمكّن منها المِنْجل , وقيل هو الذي انتزعته الرياح فطارت به [٢] , حيث إن كلمة

حصيداً على الرغم من وجازتها , إلا إنّها اختزنت كلّ معاني الهلاك والدمار والتلاشي . فجاء التعبير بها بصيغة المبالغة دلالة على ذلك .

ومن مواضع التناسب الخفيّ أيضاً قوله تعالى : " فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِين " (يونس ٨٣)

وجاءت فاصلة الآية بوصف فرعون بالمسرف , حيث جاءت صفة ثابتة فيه ؛ دل على ذلك تعدد المؤكدات وتنوعها وهي" إنّه " واللام في " لمن " واسم الفاعل " مسرفين ". والمسرف هو المتجاوز الحد في الظلم والفساد بالقتل وسفك الدماء , وكذلك الكبر والعتوّ ممّا

١- انظر , البقاعي , نظم الدرر , ٣ / ٤٣٣ .

٢- انظر , ابن منظور , مادة حصد .

أدّى به إلى ادّعائه الربوبّية وهي أعظم إسراف قام به فرعون [١] , بل إنّه فاق إبليس في تمرّده , بدليل أنّ إبليس في قمة تمرّده قال مخاطباً ربّ العزّة " فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ " (ص ٨٢) , ويقول البقاعي : "المسرفون هم العريقون في مجاوزة الحدود بظاهرها وباطنها وإذا ضممت هذه الآية إلى قوله تعالى: " وإنّ المسرفين هم أصحاب النار " (غافر ٤٣) كان قياساً بديهيّاً منتجاً إنتاجاً صريحاً قطعياً أنّ فرعون من أصحاب النار[٢] ".

وجاء تنكير لفظة " ذرية " دلالة على قلّة من آمن مع موسى (**u**) لشدة الخوف الذي عرفوه عن فرعون , والوعيد الذي توعدهم به في حال إيمانهم مع موسى (**u**) , حيث سيطر أسلوب التوكيد على أجواء الآية كاملة دلالة على شدّة استكبار فرعون وعتوّه, فلم يكتف بعدم الإيمان بل منع غيره منه ؛ لذا كانت عقوبته أشد , وجرمه أكبر . فجاء الوصف المؤكد من الاستكبار والتجبّر لبيان استحقاق العاقبة التي تنتظره وهي التي أبانت عنها آيات أخرى كما في قوله تعالى: " النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ" (غافر ٤٦)

وقد ذكر سبحانه ما قام به فرعون من عذاب السحرة الذين اتبعوا موسى (**u**) وآمنوا به , حيث قال سبحانه على لسان فرعون : " فلأقطّعنّ أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلّبنكم في جذوع النخل" (طه ٧١) . فدلّت الآية دلالة واضحة على شدة الإسراف في الجرم حيث جاء التعبير القرآني باستخدام حرف الجر " في " الذي يدل مع التوكيد في قوله " لأقطّعنّ " على نفسية فرعون , فجاء الوصف بمنتهى الدّقة والبلاغة , فظهرت هذه النفسية واضحة جلية أمامنا .

١– انظر , الألوسي , روح المعاني , ٤ / ١٥٩ .

٢- البقاعي , نظم الدرر , ٣ / ٤٧٣ .

هذا بالنسبة للتناسب الخفيّ أمّا التناسب الظاهر فمنه في سورة يونس قوله تعالى " إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ " . (يونس ٤٤) فظهر التناسب بين أول الآية وفاصلتها , وهو الظلم حيث ينفي سبحانه عن نفسه الظلم للناس , ويؤكّد على أنّ الناس هم الذين يظلمون أنفسهم بارتكابهم الأخطاء التي توجب عقابهم ؛ فجاء لفظ الجلالة " الله " في بداية الآية لينفي سبحانه الظلم عن نفسه بما تحمله هذه اللفظة من صفات الكمال والتنزه عن كل عيب [١] . ويؤكّد ذلك بأداتي التوكيد " إنّ ولكنّ " , وتقديم المفعول على عامله في قوله : " أنفسهم يظلمون " دلالة على أنّ العدل من صفاته وليس الظّلم وأنّهم هم الظالمون لأنفسهم بارتكابهم الأخطاء .

وجاء الحديث شاملاً لجميع المشركين الذين يستمعون ولا يهتدون وينظرون ولا يعتبرون , وقد أكد سبحانه أنّه سينالهم ما نال جميع أمثالهم , وقد دلّت أداة الاستدراك " لكنّ " على نفي الظلم عن الله . فقد بين سبحانه طريقي الخير والشر وهم يختارون أي طريق يسلكون , وقد أكّد على أنّ الناس يظلمون فيستحقون العذاب , ليأتي العذاب عدلاً لأنهم ظلموا فاستوجبوا العذاب [٢] , كما أنّ التّعبير بالفعل المضارع " يظلمون يدلّ على استمرار ظلمهم لأنفسهم .

وجاء التناسب الظاهر في موضع آخر من السورة كما في قوله تعالى؛ " فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ "

١– انظر , الشعراوي , تفسير الشعراوي , ١٠ / ٥٩٥٦ .

٢– انظر , ابن عاشور , التحرير والتنوير , ١١ / ١٠٨ .

(يونس ١٠٢) والآية في سياق اليأس من إيمان مشركي مكّة الذين جاءهم من الآيات والبيّنات للإيمان , ولكنّهم رفضوا ذلك ؛ فجاء الخطاب من الله تعالى إلى الرسول (r) : هل ينتظرون أن يحلّ بهم ما حلّ بالأقوام السابقة أمثال قوم نوح وقوم فرعون وغيرهم؟.

وقد وقع الاستفهام بـ " هل " لإفادتها تحقيق السّؤال , وهو باعتبار تحقيق المسؤول عنه وأنّ الجواب جدير بالتحقيق . وجاء الاستفهام إنكاريّاً فنزلوا منزلة من ينتظرون شيئاً ليؤمنوا , ولا شيء يصلح سوى ما جاء لتلك الأقوام من العذاب [١] .

وجاء التعبير بالاستفهام بذكر " الأيام " , وهذه اللفظة تطلق على ما يقع فيها من الأحداث العظيمة والبارزة , والأيام التي خلت في الآية هي أيّام قوم نوح وقوم فرعون وجاء التهديد بقوله " فانتظروا " تهديداً لهم وتوبيخاً مما سيحدث لهم من عاقبة الإشراك بالله [٢] .

وأشارت فاصلة الآية إلى أنّ مهمّة الرّسول(r) هي التبليغ , فهو وعيد من الله تعالى يتضمن التبشير بالنصر فجاءت تبيّن حال النبي (r) من الانتظار [٣] . وجاء التوكيد بقوله : " إنّي " ترهيباً لهم من العذاب الذي ينتظرهم في حال الاستمرار على الكفر.

سادساً : مناسبة الآية لما قبلها

١– انظر , ابن عاشور , التحرير والتنوير, ١١ / ٢٩٨ .

٢- انظر , الشعراوي , تفسير الشعراوي , ١٠ / ٦٢٤٤ .

٣- انظر , ابن عاشور , التحرير والتنوير , ١١ / ٢٩٢ .

وصف علماء القرآن الآليّات التي تترابط فيها جمل النص ؛ لتحفظ للنصّ وحدته الشكلية والموضوعيّة . وتنقسم هذه الروابط إلى روابط لفظية وأخرى معنوية . أما اللفظية فتتمثل في الحروف الظاهرة في اللغة كحروف الجر وحروف العطف وغيرها , وتعطي صفة لفظية للنص وتؤدي دوراً كبيراً في ترابط النص وتلاحمه .

أمّا المعنوية – وهي موضوع الدراسة والتي يقع على عاتقها العبء الأكبر في النصوص – فتعتمد على المعنى الذي يؤديه النص والتمهيد لموضوع آخر ؛ فلا يجوز التنقل بين الموضوعات دون مناسبة معنوية تمهد للخوض في موضوع آخر .

ويبدو هذا جليّاً في القرآن الكريم , بل معجزا أيضا , فمن سور القرآن ما هي مكوّنة من آيات قصيرة تحمل موضوعاً أو أكثر , ومنها ما هي مكونة من آيات طويلة تتعدد فيها الموضوعات والقضايا دون أن يشعر فيها القارئ بأيّ نوع من الصعوبة في فهم الأفكار ؛ فالنّاظر في سورة يونس يجد العديد من الموضوعات والقضايا , وعلى تعدّدها فإنّه لا يحسّ بشيء من التداخل عند قراءتها ؛ فكلّ موضوع يسلم إلى الآخر بطريقة مناسبة , فظل موضوع الوحدانية لله مسيطراً على أجواء السورة كاملة , فجميع القضايا التي تناولتها السورة كانت تنضوي تحت هذا الموضوع وذلك كما في قوله تعالى :

" وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١) هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنِّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُون "(يونس٢٢ – ٢٣)

يبيّن الله سبحانه أن رحمته محقّقة الوجود , فبيّن أنّ للناس آية عظمى من أنفسهم لا يحتاجون بعدها إلى التعنّت وطلب المعجزات , وهي دالّة على نتيجة مقصود السورة وهو الوحدانية لله , وإنّ إشراكهم إنما هو بما لهم من نقص الغرائز الموجب لكفران الإحسان [١].

ولماّ سيطر موضوع الإيمان بوحدانية الله على أجواء السورة كاملة , جاءت الآية بعدها مثبتة ذلك , يقول أبو حيان : " ومناسبتها لما قبلها أنّه لماّ ذكر تعالى أنّ الناس إذا أصابهم الضر لجأوا إلى الله , فإذا أذاقهم الرحمة عادوا إلى عادتهم من إهمال جانب الله والمكر في آياته [٢] " .

وقد ذكر سبحانه قدرته في البرّ والبحر فتناول تفصيل الحديث عن البحر ؛ لأنّ السير فيه من أكبر الآيات وأوضح البينات . ففي البحر لا ملجأ إلا لله ولا مجال للهروب أو اللجوء إلى أيّ نوع من القوى حيث تتجلى هنا قدرة الله عز وجل , وتظهر الأنفس على حقيقتها فتدلي ما فيها من حقائق الإيمان يقول تعالى : " وظنوا أنهّم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين " لتدلّ الجملة الإسّمية على أنّ الإيمان بالله موجود وثابت في قلوب العباد . وموضوع الإيمان بالله صراحة قائم على التعنت لغايات شتى , دل على ذلك ردة الفعل الناتجة عنهم بعدما أنجاهم من الهلاك فقال تعالى : " فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق " فجاءت " إذا " الفجائية لتدّل على السرعة في انقلابهم إلى الكفر بعد النجاة من الغرق .

ومن المواضع الدّالة على التناسب بين الآيات قوله تعالى : " قَالُواْ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (٦٨) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِي

١- انظر , البقاعي , نظم الدرر , ٣ / ٤٢٩ .

٢- أبو حيان , البحر المحيط , ٥ / ١٤١ .

الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ (٧٠) وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ (٧١) فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣) ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَآؤُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلوبِ الْمُعْتَدِينَ (٧٤) ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ (٧٦) قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧) قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاء فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِين " . (يونس ٦٨ – ٧٨) ويذكر سبحانه وتعالى في بداية الآيات نفيه أن يكون عنده ولد , وأكّد هذا النفي بالأدلّة والبراهين, فقد جاء الاستفهام في قوله تعالى : " إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ " استفهاماً يحمل معنى الإنكار والتوبيخ لمن اتبع ما لا يعلم . فذكر سبحانه قبل ذلك أنّ كلّ ما في السماوات والأرض بيده سبحانه فلا مجال للشك بوحدانيته .

وبعد ذكر ما سبق من أدلّة على وحدانيته سبحانه , جاء بذكر قصص الأنبياء في الآيات التي بعدها وما دعوا إليه أقوامهم من توحيد الله ونبذ الكفر فقد ذكر اثنين من الرسل : نوح وموسى عليهما السلام .

فابتدأ سبحانه بسيدنا نوح (u) وجاء بقصّة قومه لأنّهم كانوا أطول الأمم الظالمة مدّة وأكثرهم عدة فكان العقاب إزالتهم بشكل نهائيّ وطمس معالمهم كأن لم يكونوا [١] , يقول تعالى : " فهل ترى لهم من باقية " (الحاقة ٨) . وقد عقّب سبحانه بذكر قصص الأنبياء عندما أرسلوا إلى أقوامهم كما في قوله : " فما كانوا ليؤمنوا " وجاء ذلك باستخدام لام الجحود دلالة على استحالة إيمانهم .

والقصّة الأخرى التي ذكرها سبحانه هي قصة موسى (u) الذي أرسل إلى قوم فرعون , وقد ذكر سبحانه أن هؤلاء الرسل الذين سبق ذكرهم بعثوا إلى أقوامهم , أمّا موسى (u) الذي ذكر قصته بشيء من التفصيل , فقد جاء بعثه إلى قوم فرعون لأنّ قصته تناسب مقصود السورة بأنّهم لم تنفع معهم الآيات والدلائل [٢] علماً أن سيّدنا موسى أيّده ربنا عز وجل بأخيه هارون مصدقاً برسالته ومؤيّداً له ومع ذلك فقد رفضوا الإيمان بالله. وقد ذكر الله تعالى الدلائل على وحدانيته وذكر ما جرى بين الرسول (r) وبين الكفار, وذكر قصصاً من قصص الأنبياء وما جرى لهم مع أقوامهم من خلاف تسلية للنبي (r) وتخفيفاً عنه مما لحقه من أذى الكفار[٣] . و تلتقي القصتان قصة نوح وقصة موسى عليهما السلام بشدّة التمرّد والعصيان من قوم نوح وقوم فرعون , وكذلك النهاية بالعذاب المدمّر والغرق .

وتتّضح العلاقة بين هذه الآيات بأنّه سبحانه ذكر قصص الرسل الذين بعثوا إلى أقوامهم والذين بعثوا إلى غير أقوامهم ليؤكّد للنبي (r) أنّ الحال واحدة في الطرفين , وأنّ

١– انظر , البقاعي , نظم الدرر , ٣ / ٤٦٥ .

٢- انظر , السابق , ٣ / ٤٧٠ .

٣- انظر , أبو حيان , البحر المحيط , ٥ / ١٧٩ .

الهداية والكفر بيد الله فلا يحزنك كفرهم , فأراد سبحانه أن يعطي الرسول (r) دافعيّة للأمام حتى يطمئنّ قلبه ويستمر في الدعوة .

وجاء التناسب بين الآيات في سورة يونس في قوله تعالى : " فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٩٧) فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (٩٨) وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ " (يونس ٩٤ – ١٠٠)

ويبدو ممّا سبق أن سورة يونس احتوت بيّنات ودلالات كبيرة دالّة على وحدانية الله سبحانه ؛ فقد ذكرت قصص الأنبياء مع أقوامهم على اختلاف طرق الدعوة من نبيّ لآخر. وجاءت هذه الآيات تذمّ الشاك بوحدانية الله تعالى وآياته والمكذبين بها , وقد جاء سبحانه بذكر قصّة قوم يونس عندما آمنوا في أواخر مراحل الدعوة , للدّلالة على أنّ أمر الهداية بيد الله سبحانه . فقد ذكر المفسرون أنّ قوم يونس آمنوا في آخر لحظة ولم يبق بينهم وبين العذاب إلا قدر ميل [1] , أي أنهّم آمنوا عندما رأوا أسباب العذاب ولم يروا العذاب بعد .

لقد ضرب الله سبحانه هذه الأمثلة ليطمئنّ النبي (r) حتى يصبر ويبقى على الحق ويثبت عليه دون اضطراب أو خوف , فأراد سبحانه أن يخفّف عن النبي(r) ويبيّن له أنّ حرصه على هداية قومه لا يكون إلا بمشيئة الله تعالى وحده , فجاء الاستفهام إنكارياً في

١- انظر , البقاعي , نظم الدرر, ٣ / ٤٩٠ . وسيد قطب , في ظلال القرآن ,٣ /١٨١٠

قوله تعالى : " أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين " ؛ لأنّ الإيمان متروك للاختيار ولا مجال للإكراه في مشاعر القلب وتوجيهات الضمير [١] .

وبعد التهديد والوعيد للّذين شكّكوا في هذا الدّين ووحدانية الله , جاء سبحانه بذكر قصة قوم يونس الذين آمنوا في لحظات متأخّرة من الدعوة وقبل وقوع العذاب عليهم ؛ ليؤكّد سبحانه أنّ أمر الهداية والضلال هو بأمر الله تعالى , فقوم يونس نفعهم إيمانهم في لحظة في حين لم ينفع إيمان قوم فرعون , لأنهم آمنوا عندما وقع عليهم العذاب فلم يفصل بين القومين سوى لحظات عزّت أقواماً وذلّت آخرين .

والملاحظ عند إنعام النظر في الآيات الآنفة الذكر , الترابط بين الآيات الذي جاء لخدمة موضوع الوحدانية لله , وهو الموضوع الذي اتّسمت به السور المكّية في القرآن الكريم [٢] وسورة يونس إحداها . ومع أنّ هذا الموضوع تكرر في السورة إلا أنّه عند قراءة السورة لا يمكن الشعور بتكرار المعنى فيها , وإنما يستقرّ هذا المعنى في القلب ويملؤه إيمانا بلقاء الله والخوف من لقائه وحسابه , والرجاء في عفوه وغفرانه وهي الغاية التي جاء التكرار لأجلها [٣] .

١– سيد قطب , في ظلال القرآن , ٣ / ١٨٢١ .

٢– انظر , عهود عبد الواحد , السور المدنية دراسة بلاغية وأسلوبية , ط١, ١٩٩٩, دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع , الأردن . ١٧ و ١٨ .

٣– انظر , رضا , محمد رشيد , تفسير المنار , ١١ / ٥٠٦ .

الفصل الثاني

أساليب النظم القرآني في سورة يونس

- **أوّلاً : أساليب علم المعاني .**

- **ثانياً : أساليب علم البيان .**

- **ثالثاً : أساليب علم البديع .**

أوّلاً

أساليب علم المعاني

يقوم هذا الباب من الدراسة بالبحث والاستقصاء لدلالة التراكيب النحويّة المختلفة , التي تنضوي تحت علم المعاني , وقد اخترت سبعة من أساليب هذا العلم تضمّنتها سورة يونس (**u**) وكان لها الدور الواضح في بيان مقصود السورة , وهو إثبات الوحدانية لله ونبذ العقائد الفاسدة . وهذه الأساليب هي :

- **الالتفات**
- **التقديم والتأخير**
- **الاستفهام**
- **النداء**
- **_ الأمر**
- **النهي والنفي**
- **التعريف والتنكير**
- **الحذف والزيادة**

الالتفات

اختلف العلماء في نسبة الالتفات إلى علم البديع أو المعاني , ويرجح أنّه من علم المعاني ؛ لأنّ له خصوصية في أداء المعنى , كالتقديم والتأخير والذكر والحذف والوصل والفصل وغيرها ؛ ولأنّ الالتفات ليس مجازاً وكذلك ليس تزييناً في الكلام ، وهو العدول أو الانحراف في الكلام من أسلوب إلى أسلوب آخر أو من لفظ إلى آخر سواء كانت في سياق واحد أو سياقين متشابهين في موضوع واحد لغرض يقتضي ذلك[١] . والذي يفيد في هذه الدراسة هو هذا الغرض الذي يختفي وراءه الالتفات , والدافع الذي جعل العربي يستخدم هذا الأسلوب اللّغوي .

ويقوم الالتفات بدور كبير في تنشيط السامع واستجلاب صفائه , وجذب انتباهه بتلك التّحولات التي لا يتوقعها في نسق التعبير وما تشعه كل صورة من تلك الصور في موقعها من السياق الذي ترد فيه من إيحاءات ودلالات خاصة[٢] . وقد سمّي الالتفات بـ " شجاعة العربية " ؛ لأنّ الشجاع يركب ما لا يستطيعه غيره وكذلك الالتفات بالكلام , فإنّ اللّغة العربيّة تختص به دون غيرها من اللغات [٣] .

وسأحاول الكشف عن هذه الدلالات في سورة يونس (**u**) من خلال ثلاثة نماذج تضمّنت الالتفات الضميري " الذي يعدّ من أوسع أشكال الالتفات ضبطاً وأكثرها شيوعاً في

١- انظر , ابن سميط , حسن أحمد بن سميط , الالتفات المعجمي في القران الكريم دراسة لغوية ودلالية , رسالة ماجستير , ٢٠٠٣, جامعة اليرموك , إشراف : حنا حداد , الأردن , ٣٧.

٢– انظر, طبل , حسن , أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية , القاهرة , ١٩٩٠ , ٢٥.

٣– انظر , ابن الأثير(ت ٦٣٧) , ضياء الدين بن الأثير , المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر, ط٢ , تحقيق : أحمد الحوفي وبدوي طبانه , دار نهضة مصر للطبع والنشر, ١٦٨/٢ .

العدول عن ضمير أصلي إلى آخر يغايره . وقد تجلّى استعماله في القرآن الكريم والشعر العربي , كما له من أهميّة ونكتة بلاغية[١] " . وأوّل مواضع الالتفات في قوله تعالى: " إِنَّ فِي اخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ (٦) إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ " (يونس٦-٧).

والآية في سياق الحديث عن الكافرين وفضح نفسياتهم وتبليغهم مآلهم يوم القيامة في حال إصرارهم على الكفر وقد جاء الالتفات في الآية الكريم مع ضمير الجلالة بقوله " إنّ الذين لا يرجون لقاءنا " لتهويل أمر الاعتقاد بعدم الرجوع إلى الله وإنكار البعث والحساب يقول الألوسي: " فيه بيان لمآل أمر من كفر بالبعث والمشار إليه فيما سبق وأعرض عن البينات الدّالة عليه، والمراد بلقائه تعالى إمّا الرجوع إليه بالبعث أو لقاء الحساب وأياً كان , ففيه مع الالتفات إلى ضمير الجلالة من تهويل الأمر ما لا يخفى[٢] " ، فقد جاء الالتفات حثّاً للكافرين على الإيمان بلقاء الآخرة مستخدماً أسلوب الترهيب من عدم الإيمان وما ينتظرهم من العذاب في الآخرة ؛ لأنّ هذه الدنيا زائلة لا بقاء فيها لشيء فكلّ شيء هالك إلا وجهه، وهذه الطمأنينة التي هم فيها والناشئة من الرضى بالحياة الدنيا والتعلق بها وترك الآخرة ؛ ليست دائمة فمصيرها إلى الزوال .

ولمّا كان الغرور أكثر بدا به تنفيراً عن حاله ؛ لأنّ درء المفاسد أولى من جلب المصالح فقال مؤكّداً لأجل إنكارهم " إنّ الذين لا يرجون لقاءنا " ؛ لأنّ الخوف والرجاء

١- الخطيب , مجدي محمد , أسلوب الالتفات في شعر البردوني ,رسالة ماجستير ,٢٠٠٦, جامعة اليرموك , إشراف : محمود درابسة , الأردن , ٤٧ .

٢- الألوسي، روح المعاني، ٦٩/٤.

معدن السعادة والرجاء أقرب إلى الحث على الإقبال [١]. وقد جاء التعبير بالمضارع بقوله: " يرجون " دلالة على استمرار عدم الرجاء عندهم .

وجاء الالتفات في موضع آخر من سورة يونس في قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ) .(يونس ٢٢)

وجاءت الآية في سياق بيان الله سبحانه لصفة ثابتة في الناس ؛ وهي الإقبال على الله في الشدائد وبزوال الشدة يكفرون بنعم الله أو ينسون ما كانوا يتعهدون به , كما في المثل الذي ضربه الله سبحانه وتعالى في السفينة وركابها .

وجاء التعبير في الآية من خطاب الحضور إلى الغيبة بناء على حال أصحاب السفينة ففي حال ركوب السفينة كان الخوف الذي يوجب الحضور، وعندما اطمأنوا بالريح الطيبة جاء الخطاب بالغيبة؛ لأنّهم غابوا عندما اطمأنّوا فلا داعي لحضورهم , يقول الزركشي : " لأنّهم وقت الركوب حضروا لأنّهم خافوا الهلاك وتقلب الرياح فناداهم نداء الحاضرين , ثم إنّ الرياح لما جرت بما تشتهي النفوس وأمنت الهلاك لم يبق حضورهم كما كان على ما هي عادة الإنسان أنّه إذا أمن غاب , فلمّا غابوا عند جريه بريح طيّبة ذكّرهم الله بصيغة الغيبة فقال: " وجرين بهم " [٢]؛ ليأتي بذلك التطابق بين اللفظ والمعنى بأسلوب يعكس بلاغة القرآن الكريم وقد دلّ قوله تعالى : " وجاءهم الموج من كل مكان " على الإحاطة الكاملة للسفينة؛ لتعكس مدى صعوبة الحال التي هم فيها .

١– انظر , البقاعي , نظم الدرر , ٣ / ٤١٩ .

٢- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ٦٤٤.

ولا يخفى ما لهذا الالتفات من المبالغة في تقبيح حال أصحاب السفينة حتَّى يكونوا عبرة لغيرهم يقول ابن الأثير: " فإنّه إنّما صرف الكلام هنا من الخطاب إلى الغيبة لفائدة , هي أنّه ذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها كالمخير لهم، ويستدعي منهم الإنكار عليهم , ولو قال حتَّى إذا كنتم في الفلك وجرين بكم بريح طيبة وفرحتم بها وساق الخطاب معهم إلى آخر الآية ؛ لذهبت تلك الفائدة التي أنتجها خطاب الغيبة[1].

وقد جاء الخطاب عند النعمة عامّاً بأسلوب حسن ؛ لأنّ السائرين في البر والبحر مؤمنون وكفار ؛ ليستديم الصالح على الإيمان , ولعل الطالح يتذكر هذه النعمة فيتهيّأ لتذكّر وشكر مسديها , ولمّا كان في آخر الآية بغيهم في الأرض , عدل عن خطابهم بذلك إلى الغيبة لكي لا يخاطب المؤمنين بما لا يليق وهو البغي بغير الحق , حيث يدل ذلك البغي على المقت والتبعيد للكافرين .

وجاءت الخاتمة بقوله تعالى : " لنكوننّ من الشاكرين " تفضح نفسيات القوم من الاعتراف بوحدانية الله تعالى , دلّ على ذلك التوكيد في الفعل " لنكوننّ " والتعبير عن الشكر باستخدام الاسم دلالة على أنّ الشكر لله صفة ثابتة عندهم والتي يكمن في مضمونها الاعتراف به إلهاً واحداً لا شريك له .

وجاء الالتفات في موضع آخر من سورة يونس في قوله تعالى:" وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ" (يونس ٨٧)

١- ابن الأثير , المثل السائر , ٢ / ١٧٨ .

والآية في سياق الحديث عن أمر الله تعالى لموسى للخروج بقومه إلى مصر خلاصاً من فرعون وقومه الذين كانوا يمنعونهم من عبادة الله , فأمرهم سبحانه باتّخاذ بيوتهم مساجد يتعبدون فيها , وقد نوّع سبحانه وتعالى في استخدام الخطاب , فمرّة كان للتثنية والثانية للجمع والثالثة للمفرد , وفي سر هذا التنوع في الخطاب يقول الدرويش: " إنّ موسى وهارون خوطبا بأنّ يتبوّآ لقومهما بيوتاً ويختاراها للعبادة , ثم سيق الخطاب عاماً لهما ولقومهما باتذخاذ المساجد للصلاة فيها ولأنّ ذلك واجب على الجمهور , ثم خص آخراً موسى بالبشارة التي هي الغرض الأسمى تعظيماً لها وللمبشر بها [١] " .

إضافة إلى ذلك فإنّ إسناد البشارة من الملك إلى صاحب الشريعة وهو موسى (**u**) أثبت لأمره وأظهر لعظمته وأثبت في قلوب أصحابه وأقرّ لأعينهم , وأفرد في قوله: " وبشر المؤمنين" أي الراسخين في الإيمان من أخيك وغيره، فقد استحقّوا المدح بالإيمان والسير على طريق الحق والهدى .

لقد جاء الالتفات في سورة يونس ليفضح نفسيّات الكافرين باعترافهم بالإيمان بالله عند وقوع الكرب والمصائب , وتبليغ الكافرين مآلهم يوم القيامة ؛ ليثبت المؤمن على إيمانه ويتّعظ الكافر ويرتدع ويعود إلى الإيمان واتباع الحق .

١– انظر , الدرويش , محيي الدين, إعراب القرآن وبيانه ,دار ابن كثير للطباعة والنشر, بيروت , ط٧ ,٢٠٠٢, ٣٧١/٣

التقديم والتأخير

تتكّون الجملة العربية من عنصري الإسناد المبتدأ والخبر , ويطلق عليهما اسم الجملة الإسمّية , والفعل والفاعل وتسمى الجملة الفعلّية. وبهذه العناصر وعلى هذا الترتيب تتمّ الفائدة لتصبح جملة كاملة .

وقد تطرأ تغيرات داخلية على الجملة تتمثل في تقديم عنصر وتأخير آخر , وذلك لغاية كامنة في نفس المتكلم أراد أن يعبر عنها . يقول الزركشي في تعريفه للتقديم والتأخير: " هو أحد أساليب البلاغة فإنهم أتوا به دلالة على تمكنهم في الفصاحة وملكتهم في الكلام وانقياده لهم , وله في القلوب أحسن موقع وأعذب مذاق[١] ".

وهكذا يعزو الزركشي الأمر إلى قدرة العربي وتمكّنه من اللغة والفصاحة العالية عنده , إضافة إلى جمال التعبير به. وترتبط بلاغة التقديم والتأخير بأثرها الفني في المعنى. بمعنى أنّ أسلوب التقديم والتأخير لا تكون له قيمته الفنية إلا إذا وصفه الشاعر أو الأديب في تجسيد أغراض فنيّة خاصّة لا تتأتى بغير ذلك[٢].

وقد تحدّث عبد القاهر الجرجاني عن التقديم والتأخير بقوله: " هو باب كثير الفوائد جمّ المحاسن واسع التصرف بعيد الغاية , لا يزال يفترّ لك عن بديعة ويقضي إلى لطيفة , ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه ويلطف لديك موقعه , ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك , أن قدم فيه شيء وحوّل اللفظ عن مكان إلى مكان آخر[٣] " .

١- الزركشي، البرهان في علوم القرآن ، ٦٠٦.

٢– انظر ، طبل , حسن , علم المعاني في الموروث البلاغي تأهيل وتقيم ,ط٢ , ٢٠٠٤, مكتبة الإيمان , مصر , ١٢٣.

٣- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ١٠٦.

وقد اخترت أربعة مواضع التقديم والتأخير تضمّنتها سورة يونس (**u**), أولها كما في قوله تعالى : " إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَـكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ " (يونس: ٤٤) قدم سبحانه وتعالى في هذه الآية المفعول به أنفسهم على الفعل والفاعل يظلمون . وقد ضرب عبد القاهر الجرجاني مثالاً على تقديم المفعول به يقول: " قولك ما ضربت زيداً تأخر المفعول , وكأنّ المعنى أنّك قد نفيت أن يكون قد وقع ضرب منك على زيد ولم تعرض في أمر غيره لنفي ولا إثبات محتمل ,أمّا إذا قلت ما زيداً ضربت كان المعنى على أن ضرباً وقع منك على إنسان وظُنّ أنّ ذلك الإنسان زيد فنفيت أن يكون إياه[١].

ويتّضح من ذلك قياساً أنّ الظلم من هؤلاء لم يكن إلا على أنفسهم لا على غيرهم, وإن ظنوا غير ذلك فهم واهمون . وقد تضمن التقديم هنا معنيين: قصر الظلم على أنفسهم لبيان ما يتعلق به الظلم والتعبير عن فعلهم بالنقص . والمعنى الآخر هو الاختصاص حيث اختصّ سبحانه الظلم على أنفسهم [٢].

ويدلّ ذلك على عدم استعمال مشاعرهم في ما خلقت له واستخدام عقولهم على غير وجه حق وإعراضهم عن الحق وتكذيب الرسل والأنبياء ,وما جاءوا به من الأدلّة والبراهين

١- عبد القاهر الجرجاني , دلائل الإعجاز , ١٢٦.

٢- انظر , الألوسي، روح المعاني، ١٢٠/٤.

وترك النظر فيها للإيمان وإنقاذ أنفسهم من عقاب الآخرة . فهذه الأخلاقيات كلها كانت سبباً في جناية الظلم على أنفسهم [١].

وقد جاء التوكّيد على ظلم الناس لأنفسهم ونفيه عن الله من ثلاثة أوجه , أولها : التوكيد بـ " إنّ " في أول الآية , وأداة الاستدراك " لكنّ " , وتقديم المفعول على عامله بقوله " أنفسهم يظلمون " حيث دلّ الفعل المضارع على استمرار الظلم على أنفسهم .

وأشعر الاستدراك بكلام بعد نفي الظلم عن أنفسهم , وهو أنّ الله لا يظلم الناس بعقابه من لم يستوجب العقاب ؛ ولكن الناس يظلمون أنفسهم فيستحقون العذاب , فالله لا يظلم الناس بالعقاب بل الناس يظلمون أنفسهم بالاعتداء على ما منعهم فيعاقبهم عدلاً ؛ لأنّهم ظلموا فاستوجبوا العذاب [٢] .

وجاء التقديم والتأخير في موضع آخر في قوله تعالى: " وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ" (يونس: ١٢) .

وجاء التّرتيب في الآية الكريمة ليتناسب مع حال الإنسان المريض الذي يصيبه المرض ويرهقه التعب , فقابل سبحانه بين حاله عندما يصيبه المرض بأنّه شكور لله وذليل أمامه سبحانه , وحاله عند زوال المرض عنه فيعود إلى سابق عهده بالكفر وجحود النعمة .

وجاء جمال التعبير هنا في ترتيب الأحوال التي يكون عليها الإنسان وكيفية تمسكه بالدعاء في جميع أحواله التي يكون عليها ، فدلّت الآية على ضعف الإنسان وسوء عبوديته

١- انظر , أبو السعود(٩٨٢) , أبو السعود محمد بن محمد العمادي , تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم, ط٢, ١٩٩٠, دار إحياء التراث العربي, بيروت. ١٤٩/٣.

٢- انظر , ابن عاشور , التحرير والتنوير , ١١ / ١٨٠

وقد أشارت إلى استحكام الضرر وغلبته بحيث لا يستطيع الإنسان جلوساً , وأمّا قاعداً فيكون متوسطاً في أحواله , وأمّا قائماً فيكون في غاية السعي في مهماته ولا يشغله من ذلك شـــيء في حال من الأحوال [١] . ويسمى هذا الترتيب بصحة الأقسام حيث يقوم المــتكلم باســتيفاء جميع أقسام المعنى الذي هو آخذ فيه بحيث لا يغادر منه شيئاً , وقد استوفت الآية هنا جميــع الهيئات التي يكون عليها الإنسان [٢] .

وبدأت الآية بـــ " إذا " الظرفية لتبين حال المشركين في دعائهم الله عند الاضطرار وإعراضهم عنه وعدم عبادته عند الرخاء [٣] . وقد جاءت صورة الــضرر والحاجــة إلــى رحمة الله مفصلة , بينما جاء الإيجاز في بيان حاله عندما يكشف عنه الضّرر مكتفياً بإيجــاز القصر في قوله " مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ " لتكشف عن حقيقة ثابتة عند الإنسان وهي سوء عبوديته وسرعة الرجوع إلى المعاصي , دلالة على عدم تمكن الإيمان من قلبه .

وجاءت الخاتمة تتحدث عن التزيين الشيطاني وفضحه في قولــه " كَــذَلِكَ زُيِّــنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ " فجاء فعل التزيّن بالمجهول ؛ لأنّ المــزين معــروف لــدى المسلمين جميعاً وهي أفكارهم الشيطانية ؛ لأنّ معرفة المزين غير مهمة فــي هــذا المقــام والمهم هو الاتعاظ والاعتبار باستحسانهم أعمالهم

١- انظر , البقاعي، نظم الدرر، ٤٢٣/٣..

٢– انظر , الدرويش , محيي الدين , إعراب القرآن وبيانه , ٣ / ٣١١ .

٣– انظر, الصابوني , محمد علي الصابوني, صفوة التفاسير, ط٩, ١٩٨٠,دار الصابوني للطباعة والنشر, مصر, ٥٧٥/١

الذميمة [١] ؛ وفي ذلك دلالة على أنّ هذا الاستحسان ينتج عنه الإدمان على مزاولة هذه الأعمال والاستمرار بها دلّ على ذلك التعبير بالمضارع في قوله : " يعملون " فهم مستمرون في هذا الأعمال .

ومن مواضع التقديم والتأخير في سورة يونس بين السماء والارض في قوله تعالى " وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ "(يونس ٦١) .

وبدأت الآية بالخطاب حيث تناولت شؤون النبي (r) الخاصّة وهي قيام الليل بقوله: " وما تكون في شأن " ثم جاء بما هم من شؤونه بالنسبة للناس وهو تلاوة القرآن عليهم فقال : " وما تتلو منه من قرآن " فجاء الضمير منه لتشويق السامع إليه ليتمكّن في نفسه , ثم جاء الخطاب يتضمن شؤون الأمة في قوله:"ولا تعملون من عمل"وهي أعمال تمتاز بالاستمرارية, دلّ على ذلك التعبير بالمضارع في جميعها [٢]. حيث جاء القصر بقوله " إلاّ كنّا " دلالة على أن كل ما يحدث في الماضي والحاضر وحتى المستقبل هو بعلم الله تعالى .

وزاد الأمر توضيحاً في قوله : " وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ " وقد تقدمت الأرض على السماء وعادتها التأخر عنها. وقد كان للسياق في هذه الآية الدور المهم , فالأهميّة هنا للأرض بناءً على سياق الآية ومضمونها الذي يتناول قدرة الله في الأرض وإعجازه فيها , يقول لاشين: " قدّم الأرض في الذكر على السماء ومن حقها التأخر لأنّه ذكر شهادته على

١- انظر , ابن عاشور , التحرير والتنوير , ١١ / ١١٢ .

٢- انظر , السابق , ١١ / ٢١٢ .

شؤون أهل الأرض وأحوالهم ووصل ذلك بقوله : " وما يعزب عن ربك " حيث لاءم بينهم, وليلي المعنى المعنى[١] " .

وفي تقديم الأرض إقامة البرهان على إحالة علمه تعالى بتفاصيلها ولأنّ الكلام في حال أهلها فكان الدّور الأبرز للسياق في تقديم الأرض على السماء في هذا المقام [٢]. وجاء استخدام حرف الجر " في " مع الأرض والسماء " ليفيد الظرفية دلالة على أن ماتحوي الأرض والسماء وما بينهما جميعه لا يخفى على الله تعالى , وأكّدت ذلك فاصلة الآية في قوله تعالى " في كتاب مبين " فجاء الوصف بالإبانة ؛ ليتناسب مع موضوع الآية كاملاً .

ومن مواضع التقديم والتأخير في سورة يونس قوله تعالى: " لِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ " (يونس: ٤٧) .

لقد اختصّ سبحانه وتعالى في هذه الآية الأمم برسل منهم . فكلّ أمة جاءها رسول منها وذلك لتتم عملية التواصل لتنجح الرسالة ، فاختصاص الأمة برسول منها يساعد في إنجاح الرسالة السماوية حتى يسهل التبليغ والتواصل بينهم , فلا يكون للمشركين عذر حول عدم الفهم وتبرير الإشراك , يقول أبو السعود : " يبعث الله لكل أمة من الأمم الخالية بشريعة خاصة مناسبة لأحوالهم ليدعوهم إلى الحق[٣] " .

وتناولت الآية الحديث عن حقيقة الأديان السماوية بأنها قائمة على ثلاثة أركان بُعث بها جميع الرسل الأولين , وهي الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح , وأمّا التقاليد

١- لاشين , عبد الفتاح , المعاني في ضوء أساليب القرآن الكريم, ط٤ , ٢٠٠٠, دار الفكر العربي , مصر . ١٦٠.

٢– انظر, أبو السعود، تفسير أبي السعود ، ٣/ ١٥٨.

٣– السابق ، ١٥١/٣.

الوثنية والتغيرات فقد طرأت على كل منها طروءاً [١] . دلّ على ذلك تنكير لفظة " كلّ " التي أريد بها الأديان كلّها , وكذلك لفظة " رسول " ولفظة " أمّة " وفي ذلك دلالة على أن اختيار الرسل للأمم تكون باختيار الله وحده بتقدير عنده سبحانه , وعلى الناس الإيمان وعدم العناد والعجب وإبداء الرّأي كما جاء في فاتحة السورة من تعجب الكافرين من بشرية الرسول (r) .

وقد جاء القضاء في قوله : " قضي بينهم " قضاء زجر على مخالفتهم رسولهم وهذا العقاب شديد يكاد من يراه أو يسمعه أن يجول بخاطره أنه مبالغ فيه فجاء بخاتمة " وهم لا يظلمون " تأكيداً على القضاء وأهميته وعظمته [٢] وقد جاء التعبير بالمضارع للاستمرار في نفي الظلم مؤكّداً العدل من جهتين : الأولى القضاء بين الناس , والثانية نفي الظلم في خاتمة الآية .

ومن مواضع التقديم والتأخير في سورة يونس قوله تعالى : " إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ " (يونس ٤)

والآية في سياق الحديث عن يوم القيامة , فالذي يبدأ الخلق ثم يعيده هو الله تعالى وحده, فيكون الحساب على قدر العمل , وجاءت هذه الآية نتيجة للآية السابقة في قوله تعالى: " إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ " (يونس ٣)

١- انظر , رضا , محمد رشيد , تفسير المنار , ١١ / ٥٠٢ .

٢- انظر , ابن عاشور , التحرير والتنوير , ١١ / ١٨٨ .

حيث تناولت مظاهر قدرته سبحانه في الموجودات التي تدل دلالة واضحة على استحقاقه الإلوهية .

وجاء تقديم الخبر هنا بقوله : " إليه مرجعكم جميعًا " للأهمية ليؤكد سبحانه على أن الرجوع سيكون إلى الله وحده على تعدد وتنوع اعتقادات البشر وعباداتهم , دل على ذلك الحال " جميعا " والتعبير بالجملة الاسمية تأكيداً على أمر الرجوع إلى الله , وأن هذا الأمر حاصل لا محالة .

وجاء مضمون الآية متفق مع التقديم والتأخير في أولها , حيث تناولت وصف الحال والموقف يوم القيامة وإثبات الحساب بين فريقين , فريق آمن وعمل صالحاً , وفريق آخر كفر بالله ولم يؤمن .

لقد جاء التقديم والتأخير في سورة يونس لإثبات أنّ الأديان السماوية وإن اختلفت في طرق العبادة إلا أنّ الغاية واحدة وهي إثبات الوحدانية لله , ونبذ الشرك لأنّه يضر بصاحبه ويؤدي به إلى التهلكة . وقد كشفت الآيات عن حقيقة ثابتة عند الإنسان وهي سوء عبوديته . فعند المرض يدعو الله ولا يشرك به شيئاً فإذا زال عنه كفر وجحد النعمة.

الاستفهام

تنوّعت أساليب الاستفهام وتعدّدت في سورة يونس, فمرة بالهمزة ومرّة بغيرها وكانت الغاية منه إثبات الوحدانيّة لله , كما سيأتي وإقامة الحجة على المشركين بها وإبطال معتقداتهم التي ينتابها الجهل والتعامي عن الحق . وكان للهمزة الدور البارز في أجواء السورة كاملة وقد أفردت الحديث هنا عنها من خلال ستة نماذج من السورة وتناولت الباقي ضمن تحليل الأساليب البلاغية الأخرى حسب موضعها .

وقد جاءت الهمزة متّفقة ومضمون السورة كاملة وهي الدعوة إلى الوحدانية لله تعالى وتكون الهمزة عنصر استفهام عندما تكون لمعرفة رأي السامع في أمر يراه , ويرى أنّه على درجة من اليقين منه، وأمّا إن كانت الهمزة فيما يسمى في الجمل التي تخرج الاستفهام إلى معنى آخر كالتعجب أو السخرية .. فإنّ ذلك يتوقف على السّياق الذي تقال فيه الجملة فتكون الهمزة حينئذ للمعنى الذي قيلت له [١].

فالوحدانيّة أمر يقيني أراد سبحانه أن يثبته في نفوس المشركين بشتّى الطرق , فجاءت الهمزة تحمل عدّة معان تلفت انتباه الكافرين للإيمان بالله وحده . وأوّل مواضعها في سورة يونس قوله تعالى : " أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ " (يونس: ٢) .

وبدأت الآية الكريمة بالاستفهام حيث إنّ الاستفهام في القرآن الكريم يخرج لأغراض عديدة منها الإنكار, وهو غرض بلاغي رئيس أشار إليه عبد القاهر الجرجاني

١- انظر ,عمايرة،خليل، النفي الاستفهام : منهج وصفي للتحليل اللغوي في العربية ، دار المسيرة, الأردن , ٢٥

بقوله : " واعلم أنّا وإن كنا نفسّر الاستفهام في مثل هذا بالإنكار , فإنّ ذلك هو محض المعنى , إنّه لينبّه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويعيا بالجواب [١] ". ودلالة الاستفهام على الإنكار دلالة عامّة يندرج تحتها عدّة معان بلاغية كالتعجب والتهديد والتوبيخ ... وغيرها .

وجاء الاستفهام الانكاري في هذه الآية بحرف الهمزة دلالة على تعجّب المشركين من اختيار الله تعالى يشراً رسولاً هو محمّد(r) يتيم أبي طالب , مع أنّها سنّة الله في خلقه يرسل إليهم الرّسل بشراً منهم ليبلّغوهم رسالات ربّهم من آدم حتى عيسى عليهم السّلام فما هو العجب في ذلك[٢] . فجاء الاستفهام ليبطل هذا العجب بإظهار الحقيقة وقطع الطريق أمام أفكارهم الجاحدة وإبطالها ؛ كي يرجعوا إلى الله تعالى معلنين إذعانهم له سبحانه فسدّ عليهم جميع الطرق التي يحاولون الخروج منها .

كما أنّ إنكارهم هذا يكشف عن حقيقة نفسيتهم التي عزّ عليها اختيار يتيم أبي طالب كما قالوا رسولاً , وفي الوقت ذاته تتضمن اعتراضاً على حكمة الله سبحانه فكأنّه لم يحسن الاختيار عندما اختار بشراً ليكون رسولاً . فهم قاسوا الأمور بمعاييرهم الدنيوية التي لا قيمة لها عند الله سبحانه عند المفاضلة بين الناس وغاب عن ذهنهم عندما قالوا ما قالوا أنّ عليهم السمع والطاعة , بغضّ النظر عن شخصية المرسل إليهم فهو يؤدي وظيفة تنحصر في الإبلاغ عن الخالق عزوجل؛ لذا جاء تقديم الانذار على التبشير في هذا السياق ليردّ على المشركين ويحذرهم من عاقبة الإنكار . ثم جاءت الصورة المشرقة المقابلة لها وهي تبشر المؤمنين بما سينالون من منزلة عالية وتكريم عند ربّ العالمين جزاء لإيمانهم.

١- الجرجاني , عبد القاهر , دلائل الإعجاز , ١١٩ .

٢- انظر: الصابوني، صفوة التفاسير، ٥٧٢/١.

ومما يـــدلّ على إصرار المشركين على عنادهم وتماديهم في طغيانهم قولهم بعد أن تأكّدوا من صدقه (**u**) : " إنّ هذا لساحر مبين " ويتجلى هذا العجب في نسبتهم هذه القـــوة البلاغيّة الفصيحة إلى شيء غير معقول ، وهو السحر ولا ينسبونها إلى الله سبحانه مع أنهّما واحد بالنسبة إلى فكرهم الفاسد . فالعجب كيف ينسبون هذه القوّة إلـــى الـــسحر الباطـــل ولا ينسبونها إلى الحق سبحانه؛ لذا جاء التوكيد في هذه الآية بأكثر من مؤكّد ليـــدّل علـــى شـــدّة التعنت والتزمت في الإنكار والرفض بتوجيه الاتهامات غير المنطقية واللجـــوء إلـــى غيـــر المعقول ؛ وهو السحر في مواجهة الحقيقة وصدق نبوة الرسول(**r**) ,ويقول البيـــضاوي : " فيه اعتراف من حيث لا يشعرون بأنه ما جاء به خارج عن طوق البـــشر [١]" ،فقـــد حقّـــق التوكيد في هذه الآية عدّة معان بلاغية ومقاصد أسلوبيّة جاءت متّفقة في دلالاتها مع نفـــسية هؤلاء القوم الذين انكروا نبوته (**r**) .

وجاء الاستفهام في موضع آخر من سورة يونس في قوله تعالى: " قُل لَّوْ شَاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ " (يونس ١٦) .

والآية في سياق إقامة الحجّة على الكافرين من ادّعاءاتهم الكاذبة على الرســـول (**r**), من خلال نفي التلاوة عليهم ؛ لأنّ ذلك مدّعى الكفار لزعمهم أنه ليس من عند الله , والدليل الثاني هو مقتضى جواب " لو " الذي يقتضي استدراكاً مطرداً في المعنى بأنّ يثبـــت نقـــيض

١– البيضاوي(ت ٧٩١) , ناصر الدين أبو سعيد عبد الله أبو عمر بن محمـــد الـــشيرازي , أنوار التنزيل وأسرار التأويل , ١٩٩٦, تحقيق : عبد القادر عرفـــات العـــشّا حـــسونه , دار الفكر , بيروت , ٣/ ٢٣٥.

الجواب والتقدير : لو شاء الله ما تلوته لكني تلوته عليكم حيث تلاوته دليل الرسالة؛ لأنّه يتضمن الإعجاز في مختلف المجالات [١] .

وجاء الاستفهام في هذه الآية إنكاريّاً[٢] ينكر فيه ربّ العزة ردّة فعل الكافرين على الرسالة المحمدية . فالنبيّ محمّد (r) عاش بينهم يعرفونه ويعرفهم منذ الصغر وحتى بعثه الله تعالى " وفي الاستفهام الإنكاري فأنت لا تقرّر المخاطب في شيء وإنمّا تنكر عليه وتستهجن ما حدث في الماضي، أو ما يمكن أن يحدث في المستقبل[٣] " .

فالاستهجان هنا جاء من طريقة تفكير هؤلاء الكافرين في رفض نبوّة محمّد (r) ونعته بصفات ليست به , وهم يعلمون ذلك من خلال حياته بينهم واتّصاله بهم عبر السّنين فيقول أبو السعود: " فإنّه غير خاف على من له عقل سليم والحق الذي لا يحيد عنه أن من له أدنى مسكة من العقل , إذا تأمل في أمره (r) وأنّه نشأ فيما بينهم هذا الدهر الطويل من غير مصاحبة العلماء في شأن من الشؤون ولا مراجعة العلم في فن من الفنون ولا مخالطة البلغاء في الحوار والخوض معهم في إنشاء الخطب والأشعار , ثم أتى بكتاب بهرت فصاحته كلّ فصيح وبلاغته كلّ بليغ وعلا نظمه كل منثور ومنظوم وحوى فحواه بدائع أصناف العلوم كاشف عن أسرار الغيب من وراء استار الكمون , ومصدّق لما بين يديه من الكتب المنزلة لا يبقى عنده شائبة اشتباه في أنّه وحي منزّل من عند الله [٤] " ، فهذا الكلام دليل على أنّ الكفر برسالة محمد (r) هو من باب الكبر على الله والعنت والإصرار عليه

١- انظر , ابن عاشور , التحرير والتنوير , ١١ / ١٢٠ .

٢– انظر, الدرويش، محيي الدين، إعراب القرآن وبيانه، ٣١٥/٣.

٣– عباس، فضل، البلاغة فنونها وأفنانها,ط١٠, ٢٠٠٥ ، دار الفرقان للنشر والتوزيع , الأردن, ٢٠٠/١.

٤- انظر , أبو السعود، تفسير أبي السعود ، ١٣٠/٣ .

وليس لأسباب مقنعة للعقل والمنطق . فالمتأمّل في هذه الصّفات يدرك بعقله حقيقة نبوته (r) لذلك جاءت الخاتمة بقوله: " تعقلون " فعبّر بالمضارع ؛ لأنّ الإيمان به أمر عقلي يدركه الإنسان على مر العصور .

ومن مواضع الاستفهام في سورة يونس قوله تعالى: " قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ {٣٤} قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ " (يونس: ٣٤-٣٥) .

وتضمّنت الآيتان السابقتان الاستفهام عن بدء الخلق والهداية باستخدام أدوات الاستفهام (هل والهمزة وكيف) على سبيل الإنكار، أمّا بدء الخلق وإعادته ففيه إعجاز لهم من أنّ هؤلاء الذين يعبدونهم من دون الله لا يستطيعون أن يخلقوا شيئاً فلا يستحقون العبادة أصلاً، فجاء السؤال متضمّناً الالتزام بعبادة الله وحده، يقول أبو السعود: " احتجاج آخر على حقيقة التوحيد وبطلان الإشراك بإظهار كون شركائهم بمعزل من استحقاق الإلهية ببيان اختصاص خواصها من بدء الخلق وإعادته به سبحانه وتعالى، وإنّما لم يعطف على ما قبله إيذاناً باستقلاله في إثبات المطلوب , وقد جعلت عليه الإعادة وتحقّقها لوضوح مكانها وسنوح برهانها بمنزلة بدء الخلق فنظمت في سلكه قيل : " من يبدأ الخلق ثم يعيده[١] " .

أمّا موضوع الهداية ففاقد الشيء لا يعطيه , فهؤلاء الذين جعلوهم شركاء لهم لا يقدرون على هداية أنفسهم ومعرفة الصواب فكيف يعتقدون بأنّهم قادرون على هداية الناس؟. فجاء التّعبير القرآني باستخدام الاستفهام ؛ لأنّه أبلغ وأوقع في القلب بإقامة الحجة عليهم وإقناعهم فيقول البقاعي : " ولمّا علم أنّهم معترفون بأمر الهداية وما يتبعها من الرزق

١- أبو السعود، تفسير أبي السعود ، ١٤٣/٣.

والتدبر أعاد سبحانه السؤال عنها مقرونة بالإعادة تنبيهاً لهم على ما يتعارفون من أنّ الإعادة أهون ؛ فإنكارها مع ذلك إما جحود أو عناد وإنكار المسلّمات كلّها هكذا , وسوقه على طريق الاستفهام أبلغ وأوقع في القلب فقال: " هل من شركائكم " على سبيل الإنكار عليهم والتوبيخ لهم أي الذين زعمتموهم شركاء لي واشركتموهم في أموالكم من أنعامكم وزروعكم[١].

وقد جاء الاستفهام في قوله تعالى: " أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى " استفهاماً تقريريّاً على إفادة الجملتين السابقتين من قصر الهداية على الله تعالى دون آلهتهم, وهذا ما ينبغي أن يختلف فيه أهل العقول ؛ دلّ على ذلك الفاصلة في قوله : " ما لكم كيف تحكمون " فجاء التّعبير بالمضارع يحمل معنى الاستمرار في طريقة التفكير الخاطئة والحكم على الأشياء وجاء الاستفهام يحمل التعجب من حكمهم الضال إذ حكموا بالألوهية للأصنام [٢] .

ويستمرّ أسلوب الاستفهام الإنكاري في سورة يونس (**u**) كما في قوله تعالى: " قَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَـذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ " (يونس ٦٨)

والآية في سياق إقامة الحجة على من أشرك بالله بنسبة الولد إليه , وينفي سبحانه وتعالى في هذه الآية وجود ولد له بناء على الاتهامات التي وجّهها الكافرون إليه بقولهم : " اتّخذ الله ولداً " فيقول البقاعي:" ولمّا بين سبحانه بالبرهان القاطع والدليل الباهر , امتناع أن يكون له ولد لكنهم ينفي أن يكون لهم بذلك نوع وحجة فقال: " إن عندكم من سلطان بهذا "

١- البقاعي، نظم الدرر ، ٤٤٠/٣.

٢- انظر , ابن عاشور , التحرير والتنوير , ١١ / ١٦٢ و ١٦٣ .

ثم زاد بها بالإنكار عليهم بقوله: " أتقولون " على سبيل التكرار[١]". وقد جاءت"من" في قوله: " إن عندكم من سلطان بهذا "زائدة لتأكيد معنى " إن " الدّالة على النفي القطعي لادعـــاءاتهم وإبطال حججهم قويّها وضعيفها عقليّها وشرعيّها [٢] .

لقد جاء الكافرون بأدلّة ظنية غير حقيقية ليسايروا أنفسهم المريضة بها , فقال تعالى لهم " أتقولون على الله ما لا تعلمون " يقول البيضاوي في جهلهم: " وفيه دليل على أنّ كـــل قول لا دليل عليه فهو جهالة وأنّ العقائد لابد لها من دليل قـــاطع، وأنّ التقليـــد فيهـــا غيـــر سائغ[٣] " . حيث جاءت الخاتمة تنفي العلم عنهم نفياً قطعياً ؛ دلّ على ذلك التعبير بالمضارع في قوله " تعلمون " للاستمرار في جهلهم وتعاميهم عن الحقّ , حيث جاء الاستفهام توبيخيّـــاً على تماديهم على الله وتجاوزهم حدود الأدب معه سبحانه .

والملاحظ أنّ أدوات الاستفهام فـــي ســـورة يـــونس (**u**) جـــاءت للتّـــصديق دون التصوّر[٤], وكان مدارها إثبات الوحدانيّة لله , ومحاولة لإقناع الكافرين بها سواء في الوجود أو الخلق أو الهداية فلا شريك له. وتم إثبات ذلك باستخدام الأدلّة العقليّة القطعيّة , فلم يـــدع لهم سبحانه مجالاً للشكّ أو العذر ؛ ليستحقوا بذلك العذاب الأليم الذي توّعدهم به سبحانه يوم القيامة .

١- البقاعي، نظم الدرر، ٤٦٤/٣.

٢- انظر , ابن عاشور , التحرير والتنوير , ١١ / ٢٣١ .

٣- البيضاوي، تفسير البيضاوي، ٢٠٨/٣.

٤– انظر , عبّاس , فضل , البلاغة فنونها وأفنانها , ١ / ١٧٤ و ١٨٥ .

النداء

كثيرة هي أدوات النداء في اللغة العربية ومتنوّعة , أمّا سورة يونس فقد تضمّنت أداة نداء واحدة وهي (ياء) . حيث وردت في ستّة مواضع من السورة . وهي لفظة معبّرة تحمل تراثاً ضخماً مع المعاني الخصبة والدلالات القوية واللّمحات المشعّة وفي هذا سرّ قوّتها وبلاغتها , والتي تعبّر عن أدقّ الخلجات، وأخفق الخفقات[١] ، ومن أمثلتها في سورة يونس قوله تعالى : " أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ " (يونس: ٥٧).

ويقول أيضاً: " قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلاَ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ وَلَـكِنْ أَعْبُدُ اللّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ" (يونس: ١٠٤) ويقول أيضاً: " قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ" (يونس ١٠٨).

والملاحظ في هذه الآيات السابقة من النظرة العامة أنّها تضمّنت الحديث عن موضوع واحد وهو الدعوة إلى وحدانية الله واتّباع نهجه الذي ارتضاه لعباده، وفيها نفى سبحانه الشكوك حول الدعوة , وفيها التفات ورجوع إلى استمالتهم نحو الحق واستنزالهم إلى قبوله , وتحذيرهم من غوائل الضّلال بما تلا عليهم من القوارع النّاعية عليهم سوء عاقبتهم وإيذان بأنّ جميع ذلك مسوق لمصالحهم ومنافعهم[٢] .

١– انظر , نعامة، عادل , أسلوب النداء وجمالياته، رسالة ماجستير, ٢٠٠٤ ,جامعة تشرين, إشراف:سامي عوض, سوريا , ٣٥

٢–انظر , أبو السعود، تفسير أبي السعود ، ٣ / ١٥٥.

ولا يخفى ما في هذه الآيات من حرص شديد على الدعوة إلى الله , لاستمالة النـــاس إلى الحق والهداية. فقد استخدم سبحانه أسلوب نداء واحد في هذه الآيات هو " يا أيّها الناس " وهو النداء للبعيد للناس كافّة مؤمنهم وكافرهم تنبيهاً على أهمية أمر سيأتي وهو نفي الـــشرك والإيمان بوحدانيّة الله والتزام أوامره واجتناب نواهيه وحتمية الرجوع إليه سبحانه ؛ وذلـــك شدّاً لانتباههم ليستمعوا ويصغوا إلى ما سيقال . وجاء الحصر في الموضع الأخير بقولـــه: " إنمّا يهتدي لنفسه " دلالة على أنّ الظّلم لا يكون إلاّ على أنفـــسهم دلّ علـــى ذلـــك حـــرف الاستعلاء تأكيداً على هذه الحقيقة وتحذيراً لهم مما سينالهم بسبب الاستمرار بالكفر وتكراره.

ويدلّ ذلك على شدّة الحرص والتأكيد عليهم باتباع الحـــق والإيمـــان بـــالله , يقـــول البقاعي: " لما كثرت في هذه السّورة الأوامر والنواهي والأجوبة , لسبب ما تقترحـــه علـــى وجه التعنت وختم بأنّ من دعا غيره كان راسخاً في الظّلم لا مجير له منه , ختم ذلك بجواب مُعْلم بأنّ فائدة الطاعة ليست راجعة إلاّ إليهم وضرر النّفوس ليس عائـــداً إلاّ علـــيهم؛ فقـــال تعالى: " قل يا أيّها الناس قد جاءكم الحق "[1]. دلالة على أنّ هـــذا الأمـــر محقّـــق عنـــدكم تعرفونه معرفة جيدة .

والموضع الآخر للنّداء في سورة يونس قوله تعالى: " وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُـــوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللّهِ فَعَلَى اللّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُـــمَّ اقْـــضُواْ إِلَـــيَّ وَلاَ تُنظِرُون " (يونس ٧١) وقوله تعالى: " وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ " (يونس: ٨٤)

١- البقاعي، نظم الدرر، ٤٩٦/٣.

وتضمّنت الآيتان أسلوباً واحداً في سياق معنويّ متشابه , وهو الدعوة إلى الله سبحانه وتصديق الرسل . فالأولى تحدثت عن قصة نوح (u) , والثانية تناولت قصة موسى (u) في دعوته لقومه فجاءتا بأسلوب واحد , وهو الحرص الشديد الذي انتابهم من أجل إيمان أقوامهم ؛ فجاء التّعبير باستخدام أداة النداء " يا " بقوله: " يا قوم " أي يا من يعزّ علي ويشقّ علي ما يسوؤهم لتهاونهم بحق ربهم مع قدرتهم على الطاعة[١]. دلالة على أهمية الأمر الذي يدعوهم إليه سبحانه ومدى الخطر الذي ينتظرهم في حال الاستمرار في الكفر والإشراك .

ولا يخفى ما في هذا الأسلوب من الحرص والرجاء والتحبب لقومهما عليهما السلام؛ لاستمالتهم للحق والإيمان , وفي ذلك دلالة على شدّة القرب بينهم وبين أقوامهم[٢].

وقد تحذف أداة النداء في بعض الأساليب اللغوية , وربّما يدلّ ذلك على التعبير عن شعور الدّاعي بقربه من ربه[٣] , كما في قوله تعالى في سورة يونس : " قَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ " (يونس ٨٨) .

ويلاحظ في الآية تكرار النداء من قبل سيدنا موسى (u) تأكيداً على عذاب فرعون الطاغية الذي يعكس نفسيّة موسى (u) المتألمّة من أعمال فرعون الظالمة التي أهلكت الحرث والنسل . وقد جاء النداء في الآية متّصلاً بفعل الأمر , والجمع بين النداء والأمر كثير في القرآن الكريم وسرّ ذلك كما يقول عادل نعامة: " إنّ المنادى عادة يطلب منه

١- انظر, نظم الدرر ، ٤٦٦/٣.

٢- وسيأتي تحليل الآية في موضع آخر من الدراسة , انظر ١٥٣ .

٣- انظر , لاشين عبد الفتاح، المعاني في ضوء أساليب القران، ١٣٨.

أن يقوم بعمل , فبعد أن يطلب إقباله بحرف النداء توجه إليه رغبة المنادى أو إرادته بوسيلة من الوسائل قد تكون الأمر أو أحد بنود الطلب الأخرى[١] " . وفي ذلك دلالة على قرب موسى(**u**) من ربه سبحانه فهو من أعظم أهل الاصطفاء .

وجاء الطلب في هذه الآية يتضمّن عذاب فرعون وطمس أمواله وقومه ؛ ليكونوا عبرة لغيرهم يقول البقاعي: " سأل موسى (**u**) إزالة فرعون وقومه وأموالهم وزينته ؛ للراحة من شرّه بعد طول دعائه على فرعون، وإظهار المعجزات لديه وطول تكبره على أمر الله وتجبّره على المستضعفين من عبادة , ولمّا كان موسى من أعظم أهل الاصطفاء أسقط الأداة تسنّناً بهم وأشار بصفة الإحسان " ربّنا " إلى أنّ هلاك أعدائهم أعظم إحسان إليهم فقال " ربّنا " [٢] ".

والتّعبير بلفظة " ربّنا " دون سواها يتطلبها سياق الآية , الذي يتحدث عن أموال فرعون وزينته , حيث إنّ توحيد الربوبية يشمل الخلق والرزق لجميع المخلوقات , والرّزق هو موضوع الآية كاملة , ودلّ الجمع على إظهار التّذلّل والعبودية لله .

لقد جاء النّداء في سورة يونس (**u**) يثبت الوحدانية لله تعالى , وينفي الشكوك حول الدعوة وإبطالها بالحجج والأدلّة الثابتة والقطعية من خلال ذكر قصص الأنبياء والرسل وتأييدهم ونصرهم على الكافرين .

١- نعامة، عادل , أسلوب النداء وجمالياته، ٣٢.

٢- البقاعي، نظم الدرر، ٤٧٥/٣.

الأمر

سيطر فعل الأمر على أجواء السورة كاملة منذ البداية حتى النهاية , فجاءت البداية تحمل الأمر بالإنذار والبشارة في قوله تعالى " : أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَـذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ " (يونس ٢)

لقد أمر الله تعالى الرسول (**r**) بتبليغ الناس بطريقي الإيمان والكفر , وقد عبر عن هذين الطريقين بالإنذار والبشارة .

وجاءت الناس الأولى في قوله " أكان للناس عجبا " خاصة بالمشركين من أهل مكة لأنهم المقصودون من هذا الكلام , وأما الناس الثانية في قوله " أنذر الناس " جاءت عامة لكل البشر الذين يمكن إنذارهم , ولما عطف على الأمر بالإنذار الأمر بالتبشير للذين أمنوا بقي الناس المتعلق بهم الإنذار مخصوصاً بغير المؤمنين [١] .

وسيطر فعل الأمر " قل " على مضمون السورة كاملة ومن أمثلته كما في قوله تعالى : " قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلاَلاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) " (يونس ٥٨ – ٥٩)

ذلك للنظر والاستدلال على إثبات الوحدانية وبيان أن مهمة الرسول (**r**) هي التبليغ وتعريف الناس بربهم الحق حتى لا يكون للناس حجة أمام الله سبحانه يوم القيامة .

وقد جاءت الخاتمة بالأمر باتباع ما أمرهم به الله وترك ما نهاهم عنه في قوله تعالى: " قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ

١- انظر , ابن عاشور , التحرير والتنوير , ١١ / ٨٤ .

فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (١٠٨) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىَ يَحْكُــمَ اللَّــهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ " (يونس ١٠٨ - ١٠٩)

فلما كثرت في السورة الأوامر والنواهي والأجوبة جاءت الخاتمة تبين أن من دعا غيره كان راسخاً في الظلم , فدل على أن فائدة الطاعة ليست عائدة إلا عليهم وضرر النفوس ليس عائداً إلا عليهم , دل على ذلك توجيه الخطاب إلى الرسول (**r**) [١] .

١- انظر , البقاعي , نظم الدرر , ٣ / ٤١٤ .

النّهي والنفي

وأبدأها بالنهي وله صيغة واحدة وهي الفعل المضارع مع لا الناهية , " ومن أوجه لا أن تكون موضوعة لطلب التّرك وتختصّ بالدخول على المضارع وتقتضي جزمه واستقباله[١] " . وخرج النّهي في سورة يونس (**u**) إلى معان بلاغية يكشف عنها السّياق, وذلك من خلال ثلاثة مواضع من السورة كما في قوله تعالى: " وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ " (يونس: ٦٥)

وسياق الآية في طمأنة الرسول (**r**) مما رآه وسمعه من الكافرين من أذى ؛ تهبيطاً لمعنويّاته في الدعوة والحد من نشرها وإفشالها , يقول أبو السعود: " هي تسلية للرسول (**r**) ممّا كان يلقاه من جهتهم من الأذيّة الناشئة عن مقالاتهم الموحشة , وتبشير له(**r**)بأنّه عزوجل ينصره ويعزه عليهم [٢] " . فالعزة لله يهبها من يشاء من عباده ؛ فجاء النهي في قوله : " لا يحزنك قولهم " لرفع حالة الحزن والاستمرار في الدعوة وعدم السماح بالضّعف والهوان من كلام المشركين من تكذيب واستهزاء .

وكون العزة تدلّ على المنعة والقوّة , فكان المشركون يعتزّون بكثرتهم وقوّتهم ويغترّون بها تجاه قلّة المسلمين وضعفهم وفقرهم . فكانوا يطعنون بالمسلمين وينقصون من شأنهم ؛ فقال تعالى قمعاً لهم: " إن العزّة لله جميعا " [٣] , وجاء التوكيد باستخدام " إنّ " ليثبت سبحانه للنبي (**r**) أنّ عزتهم كالعدم ؛ لأنّها محدودة وزائلة والعزّة الحق لله الذي

١- ابن هشام(ت ٧٦١) , جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام الأنصاري, مغني اللبيب عن كتب الأعاريب, ٢٠٠٥ , تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد , دار الطلائع للنشر والتوزيع , القاهرة, ١ / ٢٦٢ .

٢- أبو السعود، تفسر أبي السعود، ٣ / ١٦١.

٣– انظر , رضا , محمد رشيد , تفسير المنار , ١١ / ٤٩٧ .

أرسلك [١] وجاءت لفظة " جميعاً " في بيان حال العزّة بأنّها لله ليبطل العزة عنهم وينفيها بشكل نهائي أمام الله تعالى .

وجاءت الفاصلة بقوله : " هو السّميع العليم " فقدّم سبحانه السمع على العلم ؛ لتتناسب مع لفظة " قولهم " في بداية الآية , دلالة على تأكيد أنّ الله أشدّ منهم قوة , وهو محيط بعلمه بأحوالهم وبما يقولونه , فإذا نهاك الله عن الحزن من أقوالهم , ما نهاك إلا لأنّه يضمن لك السلامة منهم وأنّ قوّته تفوقهم جميعاً [٢] .

وجاء النّهي في موضع آخر من السورة لوقف وقطع حالة الشك حول الرسالة السماوية وبيان العقاب الذي يقع على المكذب بها , وذلك في قوله تعالى: " فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ {٩٤} وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ " . (يونس: ٩٤-٩٥) .

وقد جاء التوكيد في قوله : " لقد جاءك الحق من ربك " دلالة على أن الرسول (r) ليس بمحلّ الحاجة لإعلامه بأنّه على الحق ؛ دلّت على ذلك المؤكّدات وهي (لام القسم وقد والنون) تأكيداً على دفع الإنكار والشك [٣] .

ولمّا كان ما مضى من آيات هذه السورة المبينة , أنّ من أريدت شقاوته لاينفعه مشاهدة الآيات سبباً لنفي الشك عنها وإثبات اليقين بمضامينها بما سلف من الأدلّة على تلك المضامين , ختم ذلك بذم من عمل عمل الشاك بعد أن جاءه ما يوجب اليقين من العلم , بقوله : " فلا تكونن من الممترين " . ولمّا نهى عن ذلك لم يبق مما اقتضته القسمة العقلية إلا

١- انظر , ابن عاشور , التحرير والتنوير , ١١ / ٢٢١ .
٢- انظر , السابق , ١١ / ٢٢٣ .
٣- انظر , السابق , ١١ / ٢٨٦ .

العناد ممن يمكن منه كما فعل بنو إسرائيل بعد مجيء العلم . فأتبعه النهي عن مثل حالهم بقوله: " ولا تكونن من الذين كذبوا "[١] وجاء التّعبير بالمضارع للاستمرار في النهي لإبطال الشك بشكل نهائي .

وجاءت الخاتمة بقوله : " فتكون من الخاسرين " لتبيّن مصير من يكذب بآيات الله وهو الخسران فجاء التّعبير بالاسم دلالة على أنّ الخسران حالة ثابتة للمكذبين يوم القيامة. وقد جاء النهي في الموقفين دلالة على عظم هذا الأمر، وهو الجحود والإنكار بآيات الله . فهو موضوع مصيريّ بالنسبة للإنسان وبما أنّه سبحانه استخدم جميع الأدلة العقلية لإقناعهم فلم يبق أمامهم مجال إلا للإيمان ولا مجال للكفر .

ويبدو في ذلك قطع لأطماع الكافرين في إفشال الدعوة , يقول أبو السعود : " هو من باب التهّيج والإلهاب والمراد به إعلام أنّ التكذيب من القبح والمحذورية , بحيث ينبغي أن ينهى عنه من لا يتصور إمكان صدوره عنه , فكيف لمن تمكن اتصافه به؟ . وفيه قطع لأطماع الكفرة[٢] " .

وجاء الموضع الأخير للنهي في سورة يونس (**u**) في خاتمة السورة يتضمن الدعوة إلى نبذ الشرك بالله في قوله تعالى: " وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ " (يونس: ١٠٦)

وقد أكّد سبحانه النهي عن الشرك في السورة كاملة من خلال هذه الآية , فالموضوع العام للسورة هو الدعوة للوحدانية لله فجاء التركيز على هذا الموضوع في خاتمتها ؛ تأكيداً على أهمية الموضوع وخصوصيته .

١- انظر , البقاعي، نظم الدرر، ٣/ ٤٨٨ و ٤٨٩ .

٢- أبو السعود، تفسير أبي السعود ، ٣ / ١٧٥.

وجاء النهي في الآية بقوله : " ولا تدع من دون الله " مقترناً بما يومئ التعليل فاستغنى عن تأكيد الفعل " يدع " ؛ لأنّ الموصول في قوله : " ما لا ينفعك ولا يضرك " يومئ إلى النّهي عن الدعاء , إذ أنّ مثل هذا الدعاء لا يقصده العاقل ؛ فجاء التحذير في قوله : " فإن فعلت [١] ".

وجاءت الخاتمة بقوله : " فإنّك إذاً من الظالمين " فجاءت " إنّ " زيادة في التحذير , من أنّ الإنسان إذا كان اعتماده على غير الله كان من الظالمين لأنفسهم فجاء التعبير بالاسم دلالة على ثبات هذه الصّفة فيمن يتّبع غير سبيل المؤمنين .

لقد جاء النهي في سورة يونس (**u**) لرفع معنويات الرسول (**r**) وإعطائه الدافعية للاستمرار في الدعوة وقمع جميع محاولات الكافرين في تهبيط معنوياته (**r**) ؛ للحدّ من الاستمرار في الدعوة . فجاء قمعهم من خلال الدلالة على عظم الجحود والاستهزاء بآيات الله وتكذيبها من خلال الأدلة العقليّة الدّالة على ذلك .

وأما أسلوب النفي فقد جاء في سورة يونس لإزالة العبادات الضالة والدعوة إلى عبادة الله , فتعددت أدوات النفي وتنوعت , ومن مواضعه في سورة يونس قوله تعالى : " قُل لَّوْ شَاء اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ "

(يونس ١٦)

والآية في سياق الحديث حول القرآن الكريم وتلاوته على المشركين , فقد بني الاستدلال على عدم مشيئة الله نفي تلاوته ؛ لأن ذلك مدعى الكفار لزعمهم أنه ليس من عند

١- انظر , ابن عاشور , التحرير والتنوير , ١١ / ٢٠٤ .

الله , فكان الاستدلال إبطالاً لدعواهم ابتداءً , وإثباتاً لدعواه مآلاً وهذا الجمع بين الأمرين من بديع الاستدلال . [١]

لقد وقع النفي مرتين , بحرف " ما " مرة وبحرف " لا " مرة أخرى " ؛ لأن حرف " ما "أصله أن يخلص المضارع للحال,فقصد أولاً استحضار الحال العظيم من شأن النبي(r) ومن قراءته القرآن , ولما ذكر عمل الأمة جاء بالحرف الذي الأصل فيه تخليصه المضارع للاستقبال من أول الكلام على استمرار ذلك على الأزمنة كلها [٢] .

والموضع الثاني للنفي الذي تضمنته سورة يونس ما جاء في قوله تعالى : " بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ " (يونس ٣٩) .

وجاءت أداة النفي " لما " لتصفهم بقلة الأناه والتثبت , فهي أداة نفي مع الإثبات المتوقع , أي أنهم ما زالوا يجهلون تفسير القرآن الكريم , فلم ينتظروا حتى يأتهم تأويله بل صمموا على التكذيب قبل ظهور التأويل [٣]

لقد دل النفي على أنهم كذبوا على البديهة قبل أن يتدبروا القرآن والإصرار على التقليد الأعمى , واتباع آبائهم في التعنت على الباطل , فقد رأوا أن التكذيب قبل الإحاطة بالعلم ربما يوهم لهم عذراً ؛ فجاءت كلمة " لما " دالة على أنهم أحاطوا بعلمه لإقامة الحجة عليهم وقطع حججهم لتحقيق شقائهم [٤]

١- انظر , ابن عاشور , التحرير والتنوير , ١١ / ١٢٠ .
٢- انظر السابق , ١١ / ٢١٢ .
٣- انظر ,السابق , ١١ / ١٧٢ .
٤- انظر , الدرويش , محيي الدين , إعراب القرآن وبيانه , ٣ / ٣٣٨ .

وجاء النفي في موضع آخر من سورة يونس في قوله تعالى : " أَلا إِنَّ أَوْلِيَـاء اللَّـهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ " (يونس ٦٢)

حيث السياق يطمئن المؤمنين ويثبتهم بالأمن والسلام , دل على ذلك تكرار النفي لإثبات عدم للخوف والحزن لدى المؤمنين , فجاء أسلوب النفي تسلية للنبي وأصحابه والأمن من أعدائهم فوعدهم الله وعداً لا يقبل التغيير طمأنة لنفوسهم .

وإذا دخلت " لا " على النكرة دلت على نفي الجنس ومعنى ذلك أنهم بحيث لا يخاف عليهم خائف , وإن كان قد يهجس في نفوسهم الخوف من الأعداء من جبلة تأثر النفوس عند مشاهدة بوادر المخافة , فهم في مأمن أن يصيبهم مكروه [١] .

وجاء تأكيد حالة الأمن باستخدام الجملة الاسمية " ولا هم يحزنون " الدالة على الثبات والاستمرار .

١- انظر , ابن عاشور , التحرير والتنوير , ١١ / ٢١٧ .

التّعريف والتّنكير

تتعدّد وظائف التّعريف والتّنكير وتتنوع , فكلّ منهما يحمل دلالة يريد المتكلم أن يعبر عنها ليفهمها المتلقي. وقد تؤدي إلى تغيير أو تعديل دلالة التراكيب اللغوية . يقول محمود نحلة: " للتعريف والتنكير دور أساسي في النظام النحوي في اللغة العربية فتعريف عنصر من عناصر التركيب أو تنكيره قد يؤدي إلى تغير التركيب أو تعديله نظماً ودلالة[١]".

وقد جاء التعريف والتنكير في سورة يونس كباقي سور القرآن الكريم , يحمل دلالات معينة , فاخترت أربعة مواضع , وجاءت لفظتان مفردتان في موضعين حيث الأولى نكرة والأخرى معرفة . أمّا النكرة فهي لفظة " سورة " وجاء تنكيرها للتعظيم كما في قوله تعالى: " أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ " (يونس ٣٨) .

ابتدأت الآية الكريمة بأداة الإضراب " أم " للانتقال من النفي إلى الاستفهام الإنكاري التعجبي من ادّعائهم افتراء القرآن بعد جميع الدلائل على صدقه وبراءته من الافتراء , وهو ارتقاء بإبطال دعواهم أن يكون القرآن الكريم مفترى من دون الله [٢] .

جاءت كلمة سورة نكرة في الآية في سياق الحديث عن القرآن الكريم , المعجزة الخالدة والرسالة المحمدية التي جاء بها محمد (r) دليلاً على صدقه والحجة أمام الكافرين. فبالقران آمن الناس وبه صدقوا نبوة محمد(r) , وحوله أيضاً أثار المشركون الشبهات والأكاذيب للطعن به, فكان حريّ بهذا القرآن أن يردّ عليهم بطريقة يعجزهم ويصغرهم بها ؛ فجاء التحدي بسورة من سورة في قوله : " قل فأتوا بسورة من مثله " مسبوقة بفعل

١– نحلة , محمود، التعريف والتنكير بين الدلالة والشكل, ١٩٩٩، مكتبة زهراء الشرق , مصر, ٢١٥

٢- انظر , ابن عاشور , التحرير والتنوير , ١١ / ١٧٠ .

الأمردلالة على التنبيه لأهمية الأمر بالنسبة إليهم . فلم تكن سورة محـــددة فـــالقرآن الكـــريم سوره كما هو معروف , مختلفة في الطول والمضمون فخيّرهم سبحانه أن يأتوا بسورة مثـــل هذه السور تحمل صفاتها من حيث المعنى والشكل أيضاً ، يقول البقاعي: " اكتفى سبحانه في تحدّيهم بالإتيان بقطعة واحدة غير مفصّلة إلى مثل سورة , لكن تكون مثل جميع القرآن فـــي الطول والبيان وانتظام العبارة والتئام المعاني ؛ لذلك قال " بسورة " ودلّت لفظـــة " مثلـــه " على البلاغة وحسن النظم وصحة المعاني ومشابهة الكتب[١] " .

ولكن هيهات , وهم أهل اللغة والفصاحة . حيث يعد هذا قمّة التحدي وقمّة السخرية والاستهزاء من فكرهم الضعيف , ومحاولة ناجحة تكمن داخلها معاني الدعوة إلـــى الإيمـــان بالله وحده بمراجعة النفس وإعادة النظر في الافكار المريضة التي سيطرت عليهم .

وأما الموضع الآخر وهو التّعريف للفظة " القرون " في قوله تعالى " وَلَقَـــدْ أَهْلَكْنَـــا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَلِكَ نَجْـــزِي الْقَـــوْمَ الْمُجْرِمِينَ " . (يونس ١٣)

والآية في سياق الحديث عن القرون السابقة التي جاءها الرسل من الله تعـــالى , فلـــم يؤمنوا , فكل ما جاءهم من العقاب والهلاك بفعل كفرهم ؛ تنبيهاً للناس من عدم الإيمان حتى لا يصيبهم ما أصاب الأقوام الذين من قبلهم .

وتناولت الآية الإنذار بأنّ الشر قد ينزل بهم كما نزل بالأمم من قبلهم وقـــد كـــانوا يعرفون أمما منهم أصابهم الاستئصال مثل عاد وثمود وقوم نوح [٢] . ودلّ علـــى معـــرفتهم لهم التعريف في قوله تعالى

١- البقاعي، نظم الدرر، ٤٤٤/٣.

٢- انظر , ابن عاشور , التحرير والتنوير , ١١ / ١١٣ .

" القرون " فجاءت معرفة ؛ لأنّ أهلها معروفون للناس وجاءتهم أخبارهم وطريقة العذاب الذي أحاط بكلّ منهم . حيث جاءت " لام القسم " وأداة التحقيق " قد " في قوله " ولقد أهلكنا القرون " دلالة على تأكيد التهديد والوعيد بالإهلاك الذي حلّ بهم .

وقد كان عدم الإيمان سبباً للظلم واستحقاق العذاب فجاء التعبير بنفي الإيمان باستخدام لام الجحود في قوله : " وما كانوا ليؤمنوا " دلالة على تأكيد نفي إيمانهم وأنّ الله قد علم أنهّم مصرّون على الكفر ولا فائدة من إيمانهم [١] .

وجاءت خاتمة الآية بقوله تعالى : " كذلك نجزي القوم المجرمين " إشارة إلى الجزاء الذي وقع على الأمم السابقة والتي أهلكت في القرون الماضية , وفي ذلك إشارة إلى أنّ قضايا الكون واحدة ؛ لأنّ القضية الإيمانية موجودة من أوّل ما أرسل الرسل [٢] يقول تعالى : " لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا " (المائدة ٤٨) وقد جاءت صفة الإجرام بحقّهم صفة ثابتة عبّر عنها بالاسم بقوله " القوم المجرمين " توبيخاً لكلّ إنسان سار على نهج تلك الأمم الغابرة .

وتضمنت سورة يونس موضعين للتعريف والتنكير للّفظة الواحدة , حيث جاءت اللفظة مرة نكرة ومرة معرفة في الآية نفسها . والموضع الأول كما في لفظة " الظّن " في قوله تعالى : " وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ عَلَيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ" .(يونس ٣٦)

١- انظر,الزمخشري(ت ٥٣٨),جار الله أبي القاسم محمود بن عمر,الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل,ط١ ,١٩٩٨ ,تحقيق:عادل أحمد عبد الموجود,علي محمد معوض,فتحي عبد الرحمن حجازي,مكتبة العبيكان ,الرياض , ١٢٠/٣

٢- انظر , الشعراوي , تفسير الشعراوي , ٩ / ٥٧٨٨ .

وسياق الآية حول عبادة الاصنام التي استعبدت الخلق حيث ادّعى الكافرون لها أموراً اختصّ بها ربّ العزّة سبحانه وتفرد بها كالخلق والهداية مثلاً . وهذه الآية جاءت تنفي هذه الادعاءات لتفضحهم أمام البشر كلهم وأمام أنفسهم تحقيراً لهم وتبشيراً بالعذاب الذي ينتظرهم , وزاد تنكير " ظن " تحقير تفكيرهم الفاسد وغير المعتمد على الأدلّة الثابتة التي يقبلها العقل فأدلتهم متعددة ومشتتة غير ثابتة ومعروفة ليقتنع بها العقل البشري . يقول أبو السعود: " وما يتّبع أكثرهم في معتقداتهم ومحاوراتهم إلا ظناً واهياً من غير التفات إلى فرد من أفراد العلم , فضلاً عن أن يسلكوا مسالك الأدلة الصحيحة الهادية إلى الحق المبنية على المقدمات اليقينية الحقة , فيفهموا مضمونها ويقفوا على صحتها وبطلان ما يخالفها من أحكامهم الباطلة فيحصل التبكيت والإلزام[١] .

فالظنّ هو الأساس الذي أقام عليه الكافرون حججهم وبراهينهم ليقنعوا بها الناس وأنفسهم بأساليبهم الخبيثة من خلال عبادتهم لما لا يضر ولا ينفع , وبتعدد هذه الأدلة وتنوعها لشدّة هوانها وضعفها أمام المنطق العقلي السليم ؛ جاء التعبير بها باستخدام النكرة لعدم ثباتها وصحتها أيضاً ؛ لأنهّا مشتتة . وعندما أصبحت معروفة ومكشوفة لدى الناس ورأوها وآمنوا بها واقتنعت بها أنفسهم , أصبحت الآية ثابتة في قلوبهم وراسخة في عقولهم جاء التعبير القرآني معرّفاً لهم إياها [٢] وذلك بقوله : " الظّن " بعد أن فضحها مسبقاً بأنهّا لا

١- أبو السعود، تفسير أبي السعود ، ١٤٤/٣.

٢- إن مسالة التعريف والتنكير مسألة نسبية تختلف من شخص لآخر بناء على ما هو معروف أو غير معروف بالنسبة إليهم كما في قوله تعالى: " وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين " حيث جاء اسم الموصول (التي) هنا معرفة بالنسبة لفرعون وموسى ولكن ليس لغيرهم ... انظر:الصرايرة، نوح, التعريف والتنكير بين النحويين والبلاغيين دراسة دلالية وظيفية نماذج من السور المكية , رسالة ماجستير, ٢٠٠٧ , جامعة مؤتة ,إشراف: يوسف القماز , الأردن, ١١

تغني من الحق شيئاً وهي بعيدة كل البعد عن الحق الثابت . وبذلك يكون سبحانه قد أزال هذه الأدلة والإيمان الظني بها من قلوب هؤلاء الكافرين وعقولهم ليرتدعوا عن عبادة هذه الحجارة.

وتضمّن ذلك دعوة لهم للدخول في الإسلام ونبذ العقائد الفاسدة ؛ لأنّ الله تعالى مطلع على جميع ادعاءاتهم . دلّ على ذلك فاصلة الآية بقوله : " إنّ الله عليم بما يفعلون " فجاء التعبير بالمضارع دلالة على الاستمرار في كشفهم وإحاطته بكل شيء .

وأمّا الموضع الثاني ففي لفظة " سحر" كما في قوله تعالى:" وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ {٧٩} فَلَمَّا جَاء السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُواْ مَا أَنتُم مُّلْقُونَ " . (يونس ٧٩-٨٠)

والآية في سياق الصراع الذي كان بين موسى (**u**) وفرعون أمام الملأ من بني إسرائيل وقد فضح الله فيه أمر فرعون على يد موسى (**u**) , وأبطل ربوبيته أمامهم بمعجزته وهي العصى التي أصبحت حيّة بأمر الله , ويقول تعالى:" قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى {١٨} قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى {١٩} فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى " . (طه: ١٨-٢٠)

ولم يهتمّ فرعون في هذه الآية بأمر هويّة السحرة ليختار من يريد منهم , بل كان همه الوحيد كيف يتخلص من معجزة موسى (**u**) فجاء التّعبير بالنكرة وذلك لأنّه كان على يقين بأنّ موسى ساحر فأراد أن يأتي بكل ساحر يعرف السحر , دلالة على نفسية فرعون الحاقدة على موسى(**u**) ومدى الغضب الذي سيطر عليه بسبب هذه المعجزة , والمواجهة بينهم أمام الناس وكأنّه يريد سحرة العالم كلّه في سبيل قمع موسى وتكذيبه , والمراد بالساحر في قوله : " ائتوني بكل ساحر عليم " هو " أيّ شخص حاذق وماهر بفنون

السحر[١] " فلم يرد ساحر بعينه لذلك جاء التعبير بالنكرة ليتّفق ونفسية فرعون وحالة الغضب المسيطرة عليه ؛ دلّ على ذلك التعبير بصيغة المبالغة في قوله : " عليم " بحق الساحر .

وعندما جاء السحرة في الموعد المحدد بين موسى وفرعون أصبحوا معروفين ؛ لأنهّم موجودون في المكان أمام الجميع بما فيهم موسى (**u**) وفرعون في قوله تعالى : " فلمّا جاء السحرة " حيث دلّت الفاء على التعقيب دلالة على الفور في إحضارهم فجاء التعبير القرآني معرّفاً بهم . ليأتي التعريف والتنكير مناسباً والموقف والحال في الموضعين في حال وجودهم وعدمه .

وقد جاءت خاتمة الآية بقوله تعالى : " أَلْقُواْ مَا أَنتُم مُّلْقُونَ " دلالة على عدم الاكتراث للسحر من جهة وتهيئة للملأ الحاضرين من جهة أخرى ؛ ليعلموا أنّ الله مبطل سحرهم على يد رسوله , فأراد سبحانه تقرير الفعل في نفوسهم قبل تحقيقه حتى يكون إيمانهم صادقاً [٢] .

لقد جاء التعريف والتنكير في سورة يونس (**u**) ؛ ليثبت صدق القرآن الكريم وحقيقته من خلال التحدي به لفصحاء العرب وبلغائهم , وإبطال الشكوك حوله وادعاءات الكافرين بأنّه من صنع البشر , من خلال ذكر قصص الإنبياء وتثبيتهم ونصرتهم على أعدائهم تأييداً للرسول (**r**) ونبذ العقائد الفاسدة كعبادة الأصنام التي كانت سائدة في مكة المكرمة آنذاك .

١- أبو السعود، تفسير أبي السعود، ١٦٩/٣.

٢- انظر , ابن عاشور , التحرير والتنوير , ١١ / ٢٥٤ .

الحذف والزيادة

وأبدأها بالحذف وهو أحد أساليب اللغة العربية , فيه يستغني المتكلم عن جزء من الكلام لفائدة يريدها وقد افتتح عبد القاهر الجرجاني هذا الباب بقوله : " هو باب دقيق المسلك لطيف المأخذ عجيب الأمر شبيه بالسحر فإنّك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق وأتمّ ما تكون بياناً إذا لم تبين[١] " ، وهكذا تظهر لنا الفائدة التي يؤديها الحذف من إيجاز الكلام للوصول إلى الغاية المرادة ليكون عدم الذكر أفصح وأبلغ من الذكر.

وقد اخترت موضعين للحذف في سورة يونس (**u**) كان لهما الدور الكبير في بيان مقصود السورة وهو الإيمان بالله , وحده والرد على المشركين به كما في قوله تعالى: " قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ {٦٩} مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ " (يونس: ٦٩-٧٠)

والآية في سياق الحديث عن الكافرين الذين يدّعون شريكاً مع الله سبحانه بأنّ له ولد, فهؤلاء لا تغني عنهم الحياة الدنيا وزينتها التي يتمتعون فيها ويتنعمون بخيراتها , ففي النهاية سيكون الموت ولقاء العذاب الشديد بهذا الكفر . فحذف سبحانه المبتدأ من بداية الآية وتقديره هو . " وقد يحذف المبتدأ والمسند إليه لإيهام صونه على اللسان إما تعظيماً له أو صون اللسان عنه تحقيراً له [٢] " .

وفي هذا المقام جاء الحذف تحقيراً لهذا الفعل الذي قاموا به بتكذيب الله ورسوله , يقول أبو السعود في حذفه: " هو كلام مستأنف سيق لبيان أنّ ما يتراءى فيهم بحسب الظاهر

١- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ١٤٦.

٢- أبو شادي , مصطفى عبد السلام ، الحذف البلاغي في القرآن الكريم, ١٩٩١ ، مكتبة القاهرة, ١٧.

من نيل المطالب والفوز بالحظوظ الدنيوية على الإطلاق , كأنّه قيل كيف لا يفلحون وهم في غبطة ونعيم ؟ فقيل هو متاع يسير في الدنيا وليس بفوز بالمطلوب . ثم أشير إلى انتفاء النجاة عن المكروه بقوله : " ثم الينا مرجعهم "[١]. حيث قدّم المجرور" إلينا " لأهمّية التذكير بالآخرة واقتصارها على الله تعالى تبكيتاً وإلزاماً لهم .

وقد بدأت الآية بفعل الأمر " قل " دلالة على التنبيه لأهمية أمر ما سيأتي , وهو التكّذيب والجحود حيث جاءت أداة التوكيد " إنّ " في قوله : " إنّ الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون " تأكيداً على عدم فلاحهم , فعبّر بعدم الفلاح بالمضارع لاستمراره عندهم.

وجاءت لفظة " قليل " في قوله " متاع قليل في الدنيا ثم إلينا مرجعكم " لتدلّ على زوال الدنيا والثبات للآخرة , حيث الرجوع إلى الله وفي ذلك إحباط لنفسيات الكافرين ؛ لقطع آمالهم في الحياة والحدّ من تكبّرهم وتجبّرهم على الله ورسوله . فجاءت الخاتمة تؤكّد دوام كفرهم بيوم القيامة ؛ ليذوقوا العذاب الشديد بكفرهم فقال: " بما كانوا يكفرون" , ودلّ على ذلك التعبير بالفعل المضارع .

وتجدر الإشارة إلى أنّه يمكن أن يكون المحذوف خبراً لمتاع تقديره " لهم متاع " . حيث إنهّا تدلّ على أنّ فلاحهم في الدنيا يتضمن المال والجاه والسلطان الذي ينالونه في الدنيا وهو قليل بالنسبة للآخرة [٢] . وأيّاً كان المحذوف , فهو إشارة إلى تلك الحقبة الزمنية التي يعيشها الإنسان في الحياة الدنيا , وتحقيرها أمام النعيم الأبدي للمؤمنين يوم القيامة .

١- أبو السعود، تفسير أبو السعود، ١٦٣/٣.

٢- انظر , أبو حيان , البحر المحيط , ٥ / ١٧٥ .

وجاء الموضع الآخر للحذف في سورة يونس في قوله تعالى: " يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ " . (يونس ٢٨)

وسياق الآية حول المشركين وأصحاب النار الخالدين فيها, يتوعدهم ربّنا عزوجل بالعذاب الأليم فحذف الفعل من بداية الآية والتقدير : أنذرهم أو ذكّرهم يوم نحشرهم , وهو كلام مستأنف مسوق لبيان بعض آخر من أحوالهم الفظيعة. وجاء تأكيد الكلام في قوله تعالى: " ما لهم من الله من عاصم " دلالة على عدم نفع الشركاء لهم[١]. فجاءت الآية تعقيباً للكلام السابق في الآية التي قبلها , التي تناولت حال أصحاب النار لتؤكّد هذه الأحوال التي تمّ ذكرها في تلك الآية ؛ لتصبح جزأين يؤكّد أحدهما الآخر.

ودلّت الآية على فظاعة العذاب وأحوال المشركين وتفصيلها ؛ ليحصل بذلك ذكر فظيع من أحوال الذين بلغوا الغاية في كسب السيئات . وهي سيّئة الإشراك فهو أكبر الكبائر عند الله ودلّ على ذلك لفظة " يوم " تهويلاً وموعظة لهم [٢] .

وتكشف الخاتمة عن حال أخرى من أحوالهم وهي تخلّي شركائهم عنهم في قوله : " وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ " فجاء النفي دلالة على شدة الخسران والضيق والخوف والوحدة التي سيعيشونها في ذلك اليوم .

ومن مواضع الحذف في سورة يونس قوله تعالى : " إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ " (يونس ٤)

١- انظر , الألوسي ، روح المعاني ، ١٠٠/٤.

٢- انظر , ابن عاشور , التحرير والتنوير , ١١ / ١٤٩ .

والآية في سياق الحديث عن يوم القيامة , فالذي يبدأ الخلق ثم يعيده هو الله تعالى وحده , فيكون الحساب على قدر العمل , وجاء الحذف في قوله " وعد الله حقاً " حيث نصب " وعد " للمفعولية وهي تأكيد لمضمون الجملة في " إليه مرجعكم " دلالة على أن الرجوع إليه أمر ثابت , فحذف الفعل " وعدكم الله " لأن مضمون الآية يشير إليه .

وتضمّنت جملة " وعد الله حقّاً " توكيداً لمضمون الجملة السابقة " إليه مرجعكم " فنصب " وعد " على المفعولية المطلقة ويسمى – باصطلاح النحاة – مؤكدا لنفسه ؛ لأنّ مضمون " إليه مرجعكم " الوعد بإرجاعهم وتقدير الكلام (وعدكم الله وعداً حقاً) وجاءت كلمة " حقّاً " لتؤكد هذا الوعد ويسمى مؤكّداً لغيره وهو الوعد بالرجوع إلى الله تعالى [١] .

وتعدد المؤكدات في هذه الجملة وتنوعت , فمرة بالحرف ومرة بالمصدر ومرة بالجملة الاسمية دلالة على تأكيد يوم القيامة , والأمر بالرجوع إلى الله تعالى ونبذ الشرك .

لقد جاء الحذف في سورة يونس (**u**) يتضمن الرد على المشركين الذين يجحدون بآيات الله وينكرونها , واتخّاذهم الأولياء من دون الله , وذلك من خلال بيان مصيرهم يوم القيامة إلى عذاب جهنم ليرتدعوا عن الكفر ويسارعوا للإيمان بالله .

وأما الزيادة فجاءت في سورة يونس في عدة مواضع منها كما في قوله تعالى :

" وَالَّذِينَ كَسَبُواْ السَّيِّئَاتِ جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ " (يونس ٢٨)

والآية في سياق مصير الكافرين ووصف الحالة التي يصلون إليها يوم القيامة , فالسيئة جزاؤها سيئة مثلها , حيث دل مضمون الآية على كثرة السيئات عندهم .

١– انظر , ابن عاشور , التحرير والتنوير , ١١ / ٩١ .

وجاءت الزيادة في قوله " من عاصم " حيث زيدت " من " لإفادة المبالغة في نفي العصمة عنهم , فلا أحد يعصمهم من دخول النار كما هو الحال عند المؤمنين , حيث جاء تنكير سيئة ليدل على عموم السيئات , فكل سيئة جزاؤها سيئة مثلها .

وفي موضع آخر جاءت الزيادة في قوله تعالى " وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ" (يونس ٦١)

وبدأت الآية بالخطاب حيث تناولت شؤون النبي (**r**) الخاصّة وهي قيام الليل بقوله : " وما تكون في شأن " ثم جاء بما هم من شؤونه بالنسبة للناس وهو تلاوة القرآن عليهم فقال : " وما تتلوا منه من قرآن " فجاء الضمير منه لتشويق السامع إليه ليتمكّن في نفسه , ثم جاء الخطاب يتضمن شؤون الأمة في قوله:"ولا تعملون من عمل"وهي أعمال تمتاز بالاستمرارية, دلّ على ذلك التعبير بالمضارع في جميعها [١].

لقد جاءت الزيادة في حرف " من " في أكثر من موضع من الآية دلالة على تعميم هذه الأعمال ابتداء من قراءة القرآن كما في قوله " من قرآن " الدالة على بعض سور القرآن وآياته , كذلك قوله " من عمل " وقوله " من مثقال " الدالة على الأعمال التي يقوم بها البشر على اختلافها وتنوعها صغيرة وكبيرة جليلة وحقيرة , كلها بعلم الله فهو محيط بالموجودات بأكملها .

١- انظر , ابن عاشور , التحرير والتنوير , ١١ / ٢١٢ .

ثانياً

أساليب علم البيان

يعدّ علم البيان بفروعه : التشبيه والكناية والمجاز من الأساليب الفنيّة التي تستمد أصولها من عالمي الغيب والشهادة المحيطة بالإنسان , مرتكزة على جوانب المعرفة الإنسانيّة من ظواهر مخلوقاته سبحانه وبديع صنعه [١] , لتظهر بذلك صورة الغائب واضحة جليّة وقريبة من عقل الإنسان فيدركها من خلال الحاضر المشاهد . وقد أفردت كلّ أسلوب بدراسة خاصّة للآيات التي تضمّنته في سورة يونس عليه السلام وبالترتيب التالي :

- **التّشبيه**

- **الاستعارة**

- **الكناية**

- **المجاز المرسل**

١– انظر , الملاّح , عائشة إبراهيم , النظم القرآني في سورة النور , ١٠١ .

التّشبيه

وجاء التشبيه في سورة يونس (**u**)؛ لإثبات الوحدانيّة لله تعالى وبيان مآل المؤمن والكافر , حيث يقوم التشبيه بعقد مماثلة بين المشبّه والمشبّه به لإثبات صفة للمشبه؛ لتكون هذه المماثلة وسيلة لتوضيح الصفة أو المبالغة في إثباتها [١] . وهذا الأسلوب يسميه العلماء باسم التّشبيه وهو " الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى [٢] ".

" ومنهج التشبيه في القرآن الكريم يجعله ميسراً للذكر لدى سائر الناس في سائر الأوقات ؛ لأنّه يعقد مماثلة بين ما يريد كشفه أو إيضاحه وبين أمر واضح ماثل يمكن للناس أن يتحقّقوه , وأن يثبتوا منه كل زمان ومكان [٣] " .

فالبيان والتوضيح للأمور وتقريبها إلى الذهن من خلال مشاهد حاضرة أمام الإنسان يراها بعينه مَهمّة من مهام التشبيه ؛ ليتأتّى له إدراك الأمر الغيبي فتكون الصفة الجامعة بين المشاهد والغائب هي الطريق التي بها يهتدي الإنسان إلى الغيبيّات ويدركها .

ويقوم التشبيه بفتح باب من المعلوم إلى المجهول ومن المدرك إلى الغيبي , ويكسب المجهول لدى المسلم قوة الوضوح من خلال المعلوم المحسوس الذي له قوّة التّجربة العلميّة في التحقيق والتثبّت والمعاينة . وإلى جانب ذلك ما فيه من الروعة والجمال في إخراجه الخفي الجلي وإدنائه البعيد من القريب , ويزيد المعاني رفعة ووضوحاً ويكسبها جمالاً وفعلاً

١- انظر , الهاشمي , أحمد , جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع, ١٩٩٩ , تحقيق وشرح محمد التونجي , مؤسسة المعارف للطباعة والنشر , بيروت , ٢٧٢ .

٢- القزويني , الإيضاح في علوم البلاغة , ٣٢٨ .

٣- أبو حمدة , محمد علي , البهيج في أساليب البيان في القرآن الكريم والحديث الشريف ونصوص من العربية, ط٢ ,٢٠٠٥ , دار عمار للنشر والتوزيع , الأردن, ١٢٣.

ويكسوها شرفاً ونبلاً [١] . فيقوى بذلك شأنه في نفس السامع ويزيد تقديره له؛ لما فيه من المقدرة على لفت انتباهه. فكلّ لفظ جاء في مكانه الذي يجب أن يكون فيه بكل المعاني حيث يعطي الصورة كاملة.وكأنّك تعيش في ذلك العالم المجهول حيث يأخذك التشبيه في رحلة إليه.

وعن طريق التشبيهات وضرب الأمثال قرّب ربّنا عز وجل صور الغيبة إلى ذهن الإنسان ليدركها , وذلك لمحدوديّة فكره وعدم اطّلاعه على جميع الماهيّات وأسرارها التي يهدف التشبيه إلى أن يقرّبها إلى ذهن الإنسان ؛ ليدرك عظمة الله سبحانه . فكانت هذه التشبيهات معجزة من معجزاته سبحانه التي أثبت فيها وحدانيتّه في الدنيا ؛ للانصياع لأوامره , فمرّة يرغب الإنسان في رحمته وما أعدّه للمؤمنين . ومرة أخرى يرهّب من عظمته وعذابه , فكلّ من المؤمن والكافر له مكانة يختارها هو إمّا الجنة وإمّا النار .

ومن خصائص التشبيه في القرآن الكريم عدم تقيّده ببيئة معينة , فلم ينحصر في عصر دون غيره فهو مستمدّ من الطبيعة وعناصرها وكذلك الدّقة في اختيار الألفاظ وبعده عن ترف الخيال وسرق القول فتجده مع الغرض الذي سيق من أجله [٢] . وتتّضح هذه الخصائص من خلال ثلاثة تشبيهات تضمّنتها سورة يونس أوّلها كما في قوله تعالى : " إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون" (يونس ٢٤)

١- انظر , أبو حمدة , البهيج , ١٠٠ .

٢- انظر , عباس , فضل ,البلاغة فنونها وأفنانها , ٢ / ٨٩ .

لقد شغلت هذه الآية الكثيرين ؛ لما فيها من اللوحات التي شغلت العقل الإنساني للتأمّل والتفكّر في مخلوقات الله , لتكتمل عنده الصورة للمشبه به وتصبح واضحة جليّة أمام ناظره , حيث " شبّهت الآية حال الدنيا في سرعة تقضّيها وانقراض نعيمها بعد الإقبال , بحال نبات الأرض بعد جفافه وذهابه حطاماً بعد ما التفّ , وتكاثر وزيّن الأرض بخضرته[١] " .

ويسمّى هذا التشبيه باسم " تشبيه التمثيل " فتكون صورته منتزعة من متعدد يقول الجرجاني: "وتشبيه التمثيل لا يحصل لك إلا من جملة من الكلام أو جملتين أو أكثر حتى إنّ التشبيه كلّما كان أوغل في كونه عقليا محضاً كانت الحاجة إلى الجملة أكثر . حيث إنّ إيراد المعنى الواحد على صور مختلفة لا يتأتى إلا

في الدّلالات العقلية وهي الانتقال من معنى إلى آخر بسبب علاقة بينهما [٢] .

والملاحظ في هذه الآية أنّ الله سبحانه جاء بالتشبيه من عدة لوحات يصعب فصلها؛ لأنّ بها تكتمل الصورة العامة للتشبيه وبالتالي من غير الممكن فصل بعضها عن بعض , فيختل بذلك مغزى التشبيه .

فالصورة التي رسمها ربّنا عزّ وجل للحياة الدنيا ابتداء بنزول المطر من السماء إلى الأرض لينبت النبات الذي تحتاجه كافة المخلوقات بما فيهم البشر , وعندما تبدأ الأرض بالتزيّن والبهجة وتبلغ الذروة في الإنتاج والحصاد واستهمّ الناس أن يأخذوا خيراتها , وعلى حين غفلة منهم جاء أمر الله تعالى ليجعلها يابسة . فلا اخضرار ولا زينة ولا بهجة

١- الزمخشري , الكشاف , ٣ / ١٢٩ .

٢- الجرجاني(ت٤٧١) , أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي, أسرار البلاغة , تحقيق: محمود محمد شاكر , دار المدني , السعودية , ط١ , ١٩٩١ , ١٠٨ .

وكأنهّا أرض ثانية لم تكن بالأمس مبهجة مخضرّة فيقول أبو حيّان : " ضرب الله مثلاً عجيباً غريباً للحياة الدنيا تذكّر من يبغي فيها على سرعة زوالها وانقضائها , وأنهّا بحال ما تعز وتسر تضمحل ويؤول أمرها إلى الفناء [١] " .

فهذه الصورة التي جاءت مفصلة من عند ربّنا عزّ وجل , والتي استطاعت أن تأخذ العقل البشري ليذهب معها إلى أبعد حدود التفكير ويبلغ الذروة من الصورة تأتي المفاجأة بآخرها . وكأنها قصة مشوقة بدأت وانتهت بأسلوب استطاع أن يدرك القارئ بعقله مدى قدرة الله تعالى المعجزة لقوى البشر عامة . يقول محمد أبو حمدة : " كلما خطا العقل خطوات أفضل في عالم الجماليات في دنيا التصوير والفنون , كان أقدر على التغلغل إلى دنيا التمثيل في القرآن الكريم وأكثر استجابة لشفافيات الجمال واللطائف فيه وذلك يتّفق مع الإعجاز البياني لكل زمان ومكان [٢] " .

وزاد في جمال الصورة الترتيب في اللوحات التي شوّقت القارئ للاستمرار في التفكير وشد الانتباه ليعيش هذه اللحظات الجميلة ويتأمّلها ؛ فمنظر الطبيعة الخلاّبة يعجب به الإنسان ويسرّح به بصره وكثيراً ما أثارت هذه الطبيعة قرائح الشعراء لينظموا الأبيات والقصائد , فكانت عندهم شيئاً مقدّساً يثير اهتمام

الإنسان ويستوقفه ؛ فجاء التشبيه في هذه الآية منسجماً ونفسيّة الإنسان لإثارة إعجابه .

والعقل هنا هو المقصود بهذا التشبيه فبدأت الصورة حسية المعرفة لتنتهي عقليّة . فكانت الصورة الحسّية تتضمن منظر المطر ونزوله وخروج النبات وثمره . ويقابلها الصورة العقليّة بقوله تعالى " حصيداً " التي تتمثّل بالمقارنة مقابل تلك اللوحات , إضافة إلى

١– أبو حيان , البحر المحيط , ٥ / ١٤٤ .

٢- محمد أبو حمدة , البهيج , ١٣٢ .

ما يحمله الاختزال في اللفظة من معاني الدمار والهلاك مما تعكس عظمة الخالق وقوّته وهيبته ؛ ليدفع إلى معرفة حقيقة الدنيا وقدرة الله عليها وقيمتها عند الله تعالى للوصول من خلالها إلى وحدانية الله والإيمان به , " والتمثيل بالمحسوس يفيد زيادة قوّة الصّورة إذ إن إلف النفس مع الحسّيات أتمّ من إلفها مع العقليّات فإذا ذكرت المعنى العقلي الجلي ثمّ عقبته بالتمثيل الحسي فكأنك قد نقلت النفس من المعنى الغريب إلى المعنى القريب [١] " .

وإن بدت الصورة في لفظة " حصيدا " أنّها صورة حسية أيضاً ولكنّ الغرض منها إثبات أمر عقلي غيبي ؛ فالقادر على فعل هذا في الدنيا قادر على فعله في الآخرة , والهدف منه زوال الدنيا وفنائها والبقاء للآخرة ؛ لذا ختمت الآية بالدعوة إلى التفكر والتدبر في قوله تعالى : " كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون " .

لقد شبّه سبحانه الحياة الدنيا بالنبات على تلك الأوصاف من الاغترار والمصير إلى الزوال , فجاء التشبيه في الآية أحسن موقعاً وأبلغ معنى من جميع ما وصف به حال الدنيا وميل النفوس إليها مع قلة صحبتها والاستمتاع بلذتها . فكذلك حال النبات والماء في النضارة والحسن , ثمّ العود إلى الجفاف واليبس [٢].

وجاء التشبيه في موضع آخر من سورة يونس بقوله تعالى : " وَالَّذِينَ كَسَبُواْ السَّيِّئَاتِ جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ " (يونس ٢٧)

١- محمد أبو حمدة , البهيج ,١٦١ .

٢- انظر , البغدادي(٤٨٥) , أبو القاسم عبد الله بن ناقيا , الجمان في تشبيهات القرآن , ٢٠٠٢, تحقيق : محمد رضوان الداية , دار الفكر . دمشق , ٩٩ و١٠٠ .

تناولت الآية الكريمة الحديث عن مصير الكافرين ووصف الحالة التي يصلون إليها يوم القيامة , فالسيئة جزاؤها سيئة بمثلها وفي مضمون هذه الآية تدل على كثرة السيئات عندهم . فالحسنة بعشر أمثالها أمّا السيئة فتكون واحدة مثلها فقط [١] .

وبتراكم سيئاتهم وقلة حسناتهم , أصبحوا ذليلين أمام الله وأمام أنفسهم فقال تعالى " وترهقهم ذلة " دلالة على شقائهم , وهذه الذّلة التي قرّبها لنا التشبيه ورسمها لنا رسماً واضحاً ليستطيع العقل إدراك هذه الحالة بوضوح , وهي حالة الظلام والسواد الذي سيطر عليه من جميع الجهات ليعكس لنا حالة الرهبة والخوف وعدم الاستقرار التي تسيطر على نفسيّة الإنسان الكافر .

ووجه الشبه هو الحالة النفسيّة التي يعيشها الكافر يوم القيامة , يقول البقاعي : " ولمّا كان المكروه مطلقا كونها بالمنظر السّيء بني للمجهول قوله تعالى " وأعشيت وجوههم " لشدّة سوادها لما هي فيه من السوء [٢] ؛ فكم هي صعبة عليهم هذه اللحظات التي يعيشونها في الخزي أمام الله والناس أجمعين وذلك ترهيباً لهم من هول الموقف ليرتدعوا ويسارعوا بالإيمان .

وجاء التشبيه في موضع آخر من سورة يونس في قوله تعالى : " وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ (يونس ٤٥)

وجاءت الآية الكريمة في سياق الحديث عن يوم الحساب والأجواء التي يعيشها الكافرون في تلك اللحظات , حيث وصفها سبحانه بأنهّا في غاية القلّة كما في قوله : " ساعة

١- انظر , أبو السعود , تفسير أبي السعود , ١٨٣/٣ .

٢- البقاعي ,نظم الدرر , ٤٣٥/٣ .

" وقد خصّها سبحانه بالنهار ؛ لأن ساعاته أعرف حالاً من ساعات الليل وظلامه [١] . وجاءت لفظة " ساعة " نكرة زيادة في تبكيت الكافرين لقلّتها وعدم نفعها لهم سوى التعارف فيما بينهم .

لقد شبّه سبحانه وتعالى المدّة الزمنية التي يعيشها الكافر في الحياة الدنيا بساعة من النهار . وهذه اللحظات القليلة لم تفدهم أكثر من أن عرفوا بعضهم , كما في قوله: " يتعارفون " فعبّر بالمضارع دلالة على استمرارهم في هذه اللحظات على التعارف فقط , ليزدادوا بذلك حسرة إلى حسرتهم بعدم القدرة على التّناصر والتعاون والتضافر كما كانوا يفعلون في الدنيا . ولمّا كانت حالهم هذه هي الخسارة فكان السامع متوقّعاً للخبر عنها فقال تعالى " قد خسر الذين كذّبوا " . وجاءت أداة التحقيق " قد " لتؤكد تحقيق الخسران وهو التكذيب بوحدانيّة الله فهو عادة ثابتة عندهم ؛ دلّ على ذلك التعبير بالماضي في قوله " خسر " لتصف حالتهم في تلك اللحظات , وتبيّن قصر المدة التي يحس بها أهل الدنيا فكأن كل هذه الحياة الدنيا مهما طالت تساوي فقط ساعة من نهار .

ويكون هذا التعارف بينهم في بداية خروجهم من القبور ثمّ ينقطع ؛ لشدة الأهوال المذهلة والمغيرة لصورهم وأشكالهم والمبدّلة لها من حال إلى حال [٢] . ويتّضح بذلك شدّة العذاب الذي يعانيه الكافرون في أول برزخ من برازخ الآخرة , وهو القبر الذي يكون مقدمة لعذاب الآخرة الأبدي . فهذه الأحوال هي التي غيّرت ملامحهم حتى أصبحوا لا يعرفون بعضهم بعضاً ويتلاومون فيما بينهم . وجاءت فاصلة الآية بالفعل الماضي " كانوا "

١- انظر , تفسير أبي السعود , ١٥٠/٣ .

٢- انظر , الألوسي ,روح المعاني ٤ / ١٢٢ .

مقترناً بالاسم " مهتدين " في قوله: " وما كانوا مهتدين " لتنفي الهداية عن هــؤلاء الكــافرين التي كانت سبباً في شقائهم , وتؤكّد على أنّ الضلال وعدم الهداية عادة ثابتة عندهم .

لقد قرّب التشبيه للناس حقيقة وجود الله تعالى من خلال مشاهداتهم الدنيويّة ؛ للإيمــان به ومبيّناً حال كلّ من آمن به واتبّع طريق الحق والهدى . وبالمقابل فقد بيّن التــشبيه حــال الإنسان الذي يكذّب بآيات الله والعقاب الذي يناله يوم القيامة توبيخاً للكافرين ليسارعوا إلــى الإيمان واتباع سبيل المؤمنين .

الاستعارة

وفي الاستعارة يعرف المعنى من طريق المعقول دون طريق اللفظ , أي إن السامع يعرف المعنى لا من خلال اللفظ ولكنه يعرفه من معناه . وقد استعمل الكثير من الناس لفظ النّقل في الاستعارة ؛ ومن ذلك قولهم : إنّ الاستعارة تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على سبيل النقل [١] .

ولا يخفى ما للاستعارة من جمال في اللفظ وتمكين للمعنى وتأثيره في النفس يقول الجرجاني : " إذا استقريت التشبيهات وجدت التباعد بين الشيئين , كلّما كان أشدّ كان إلى النفس أعجب وكانت النفوس لها أطرب , وكان مكانها إلى أن تحدث الأريحيّة أقرب ؛ لأنّ موضع الاستحسان ومكان الاستطراف أنّك ترى بها الشيئين مثْلين متباينين , ومؤتلفين مختلفين [٢] ... وفي موضع آخر يقول : رأيت العقلاء كلهم يثبتون القول بأنّ من شأن الاستعارة أن تكون أبداً أبلغ من الحقيقة [٣] " .

وبذلك ينفي الجرجاني أن تدخل الاستعارة في التخيل لأنهّا تهدف إلى إثبات معنى معقول وليس إثبات لفظة مستعارة متخيلة غير واقعية . فيكون توظيف اللفظة في الاستعارة لخدمة المعنى الحقيقي الكامن وراءها .

وليس العامل اللفظي هو المراد من الاستعارة لتزيين الكلام وتجميله بل المعنى الداخلي الذي يتضمنه هذا اللفظ للكشف والتوضيح .

١-انظر , الجرجاني , دلائل الإعجاز , ٤٣١ و ٤٣٤ .
٢-الجرجاني ,أسرار البلاغة , ١٣٠ .
٣- الجرجاني , دلائل الإعجاز , ٤٣٢ .

وتقرّب الاستعارة بين حقيقتين بعيدتين عن بعضهما كلّ البعد وقد تجرّدتا من أي علاقة يمكن فهمها , فالاستعارة أكثر من أن تكون مجرد استعارة عاديّة وربمّا هي التي تتضمن الأداة المثلى للمعرفة [١] .

وقد تناولت الدراسة أربع استعارات من سورة يونس كان لها الدور البارز في أداء المعاني بأسلوب واضح بليغ, محاولة لطمأنة الرسول (r) وحثه للاستمرار في الدعوة وأول هذه الاستعارات كما في قوله تعالى : " وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ " (يونس٢١) .

ونزلت الآية في كفّار مكّة عندما أصابهم القحط سبع سنين حتّى كادوا أن يهلكوا , فطلبوا من الرسول (r) أن يدعو لهم بالخصب , فلمّا رحمهم الله أخذوا بالكفر .

وقد استعار سبحانه لفظة الذوق على سبيل الاستعارة المكنية دلالة على فحص الطعام وكشفه ومعرفته إلى الرحمة , حيث إنّ هذه اللفظة خاصة بتذوق الطعام فأسندها سبحانه إلى الرّحمة وكأنهّا طعام يذاق مبيناً أنّ رحمته محققة الوجود وأنّ لهم آية عظمى من أنفسهم لا يحتاجون معها إلى التعنّت بطلب آية . وهي دالّة على نتيجة مقصود السورة وهو الوحدانية لله , وإن إشراكهم إنما هو بما لهم من نقص الغرائز الموجب لكفران الإحسان [٢] , فقد أحسن الله إليهم عندما أذاقهم الرحمة وهم عامّة يقابلون النعمة بالكفر .

١- انظر , الصاوي , فن الاستعارة , الصاوي , أحمد , فن الاستعارة دراسة تحليلية في البلاغة والنقد مع التطبيق على الأدب الجاهلي , ١٩٧٩, الهيئة المصرية العامة للكتاب , الإسكندرية , ٣٤٤ .

٢- البقاعي ,نظم الدرر , ٤٢٩/٣ .

وكلّما أحسن الله إليهم بنعمة يقابلونها بالكفر والجحود , وأساءوا إلى أنفسهم عندما اقترفوا الذنوب حتى أصابهم الضرر . يقول الألوسي : " إنّ إسناد المساس إلى الضرر بعد إسناد الإذاقة إلى ضمير الجلالة من الآداب القرآنية [١] .

ودلّت لفظة الذوق والتعبير بها باستخدام " إذا " الفجائية ؛ دلالة على إسراعهم بالكفر وجحود النعمة والشرك بالله سبحانه , حيث إنّه يحمل معنى أول المخالطة دلالة على السرعة . فالكفر الناتج عن عدم تحقيق الإيمان واليقين به وتمكينه في قلوبهم فهم يخدعون النبي (r) والذين آمنوا . يقول البقاعي : " والجملة دالّة على إسراعهم بالمكر من ثلاثة أوجه التعبير بالذوق الذي هو أول المخالطة , ولفظ " من " التي هي للابتداء , وإذا الفجائّية[٢] " .

وجاءت الاستعارة في موضع آخر من سورة يونس في جملة (اشدد على قلوبهم) في قوله تعالى : " وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ " (يونس ٨٨) .

وجاءت الآية الكريمة [٣] تمهيداً للدعاء على قوم فرعون , فجاء النداء بقوله " ربّنا " فحذف أداة النداء تذلّلاً لإظهار العبوديّة لله . وجاء بالتوكيد " إنّ " للإخبار عن نعم الله على قوم فرعون في قوله تعالى " إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا " وذلك توطئة للدعاء عليهم . فليس المقصود به حقيقة الإخبار ولكن تمهيداً لطلب سلب النعمة عنهم[٤] فقال تعالى " لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ " .

١- الألوسي , روح المعاني , ٨٩/٤ .

٢- البقاعي , نظم الدرر , ٣ /٤٣٠ .

٣– وجاء تحليل هذه الآية في موضوع آخر من الدراسة . انظر ٧٣ .

١– انظر , ابن عاشور , التحرير والتنوير , ١١ / ٢٦٨

وجاء الدعاء من موسى بضلال قوم فرعون رحمة ورأفة ببني إسرائيل , وقد دل على ذلك تكرار الدعاء بقوله " ربّنا " زيادة في التأكيد على الطلب بسبب الخطر الكبير الذي سيقع على بني إسرائيل من فرعون إذا لم يعجل هلاكه ؛ لأن فرعون ضلّ وأضلّ غيره فتنوع طلب الهلاك , فمرة بالإضلال ومرة بالطمس وأخرى بعدم الإيمان خوفاً من أن يرحم الله تعالى فرعون فيغفر له .

وجاءت الاستعارة المكنية في قوله تعالى: " واشدد على قلوبهم " ؛ لتتّمكن الشّدة من القلوب فتعكس الحالة النفسية المسيطرة على موسى (u) , وذلك لشدّة تعنّت فرعون مع الله سبحانه بادّعائه الربوبية , إضافة إلى ما قام به من تعذيب لقوم موسى (u) , وقتلهم واستحياء نسائهم وصدهم عن الإيمان بالله . وجاء الدعاء على قوم فرعون بالأنكاد والأحزان ؛ لتجعل قلوبهم في ضيق وحرج وعناء ما داموا في الكفر , دلّ على ذلك الجمع في قوله " القلوب " لتشمل النفوس والعقول ؛ وذلك حرصا من موسى (u) على هدايتهم بعدما تزول عنهم النعم كما في قوله تعالى " وإذا مس الإنسان الضر دعانا [١] " .

وهذه الأعمال التي قام بها فرعون بحّق موسى وقومه دفعت موسى (u) للدعاء على فرعون حتى يموت كافراً ويعذب في نار جهنّم . ويقول البقاعي : " لمّا كان قد رأى منهم أي موسى من التكبر على الله

والتكذيب لآياته والتعذيب لأوليائه ما لا يشفي غيظه منه إلا إدامة شقائهم دنيا وأخرى , وكان عالما أنّ قدرة الله على إبقائهم على الكفر مع تحسرهم بسبب المال , كقدرته على ذلك باستدراجهم إليه بالمال قال: " اشدد على قلوبهم " ليتسبب عن ذلك عدم إيمانهم إذا رأوا

٢- انظر , السابق , ١١ / ٢٧٠ .

مبادئ العذاب [١] ؛ حيث جاء الدعاء من موسى (**u**) باستخدام النفي " فلا يؤمنوا " لطغيانهم وشدّة ضلالهم , وقد علم بطريق الوحي أنهّم لن يؤمنوا فدعا عليهم [٢] . وقد دلّ على ذلك استخدام " حتى " في قوله: " فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ " الدّالة على انتهاء الغاية الزمانية وهي بعد العذاب وهي الساعة التي لا تقبل فيها التوبة .

وفي موضع آخر من سورة يونس جاءت الاستعارة في قوله تعالى : " هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ " (يونس٦٧)

وقد استعار سبحانه في الآية لفظة البصر للنهار على سبيل الاستعارة المكنية ؛ دلالة على الوضوح والرؤيا وهي ميزة للنهار . يقول البقاعي : " وقد أعار السبب وصف المسبب فقال " مبصراً " لتنتشروا فيه [٣] " .

والوضوح من الصفات التي تميز النهار وهي خاصته التي يفيدها للبصر والرؤية , وقد سمى سبحانه النهار مبصراً ؛ لأنّ الناس يبصرون فيه فكأنّ ذلك صفة الشّيء بما هو سبب له على طريق المبالغة [٤] .

وقد جاءت الخاتمة بقوله : " إنّ في ذلك لآيات لقوم يسمعون " إشارة إلى أنّ تلك المعاني تنهض دلالتها للعقول بالتأمل والتفكر فيها , وأنّ التفكير فيها لا يحتاج سوى لفت النظر إليها لمعرفة دلالاتها وهي الوحدانية لله . ولمّا كان التذكير بها هو الأصل في

١- البقاعي , نظم الدرر , ٤٧٥/٣

٢– انظر , الصابوني , صفوة التفاسير , ١ / ٥٩٥ .

٣- البقاعي , نظم الدرر , ٤٦٥/٣ .

٤– الرضي(ت ٤٠٦),الشريف محمد بن الحسين , تلخيص البيان في مجازات القرآن, ط١ , ١٩٥٥ , تحقيق : محمد عبد الغني , دار إحياء الكتب العربية , القاهرة, ١٥٦ .

استخراج دلالتها جعل سبحانه " آيات " دلالتها حاصلة للذين يسمعون [١] فجاءت أداة التوكيد " إنّ " دلالة على تأكيد السماع لهذه العقول .

وجاءت الاستعارة في موضع آخر من سورة يونس في قوله تعالى: " وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ فَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ (٤٢) وَمِنهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ " (يونس ٤٢ و ٤٣) .

والآيتان في سياق التخفيف عن الرسول (r) وطمأنته وإعطائه الدافعيّة للاستمرار في الدعوة إلى الله وعدم التخاذل لما يجده من أقوال بعض الكافرين وأفعالهم .

وقد استعار سبحانه لفظتي الصم والعمى بحق الكافرين لتعاميهم عن الحق على سبيل الاستعارة التصريحية [٢] ؛ فالكافر غير منتفع بنظره ؛ لما جعل عليه من الغشاوة فكان كالأعمى الذي زاد على عدم بصرة عدم العقل , فلا بصر ولا بصيرة " , إذ أنّ هداية الطريق الحسّي لا تمكن إلا بالبصر , وهداية الطريق المعنوي لا تمكن إلا بالبصيرة[٣]" . وجاء الاستفهام في قوله تعالى : " أفأنت " في موضعين من الآية ؛ ليؤكّد إنكار هدايتهم لعدم انتفاعهم بالآيات والنذر , وبيان للرسول (r) بأنّ هداية القوم ليست من شأنك ولا اختصاصك , وإنّ هؤلاء القوم أظلمت نفوسهم فأنت لا تسمع الصم ولا تهدي العمي [٤] .

١- انظر , ابن عاشور , التحرير والتنوير , ١١ / ٢٢٨ .

٢- انظر, الصابوني ,صفوة التفاسير ٥٩١/١ .

٣- البقاعي ,نظم الدرر٤٤٨/٣ .

١– انظر , عباس , فضل , البلاغة فنونها وأفنانها , ١/ ١٩١ .

ويقول الألوسي : " ومن هنا تعذر عليهم فهم معاني القرآن والأحكام الدّقيقة وإدراك الحكم الرشيقة الأنيقة , فلم ينتفعوا بسرد الألفاظ عليهم غير ما ينتفع به البهائم من كلام النّاعق [١] " .

وقد ذكّرهم الله تعالى بالصم والعمى ؛ لأنهّم لا يستفيدون شيئاً من كلام الله لأنهّم يجهلونه لتعنتهم وإصرارهم ولو كانوا يعقلون لأدركوا ما سمعوا أو تأمّلوا لرأوا من معجزات النبوة الموجبة للإيمان . دلّ على ذلك الخاتمة بقوله: " يعقلون " و " يبصرون" . فالعاقل قد يفهم بفراسته ما يسمع فيهتدي. وكذلك المبصر من خلال معجزات الله في مخلوقاته . أمّا إذا كان فاقد العقل والبصر , فهذه مصيبة كبرى تصبح بسببها الهداية داخلة في دائرة المستحيل . دلّ على ذلك تكرار أداة الامتناع " لو " في مضمون كل من الآيتين.

لقد جاءت الاستعارة في سورة يونس طمأنة للرسول (**r**) للثبّات على الحق من خلال الأمثلة المشاهدة , وموقف موسى (**u**) من فرعون وقومه ويأسه من دعوتهم في إثبات الوحدانية لله , فكان نصر الله لموسى وتمكنه من فرعون وخزيه في الدنيا والآخرة دليلاً على نصرة الله لأنبيائه وتأييدهم .

الكناية

وتقوم الكناية بإثبات المعنى المراد بطريقة مغايرة للطّرق المتعارف عليها في الألفاظ فتعمد إلى إثبات المعنى بواسطة العقل دون اللفظ وبالتالي يكون المعنى أكثر بلاغة وإثباتاً .

٢- الألوسي , روح المعاني ١١٩/٤ .

وإضافة إلى تثبيت المعنى فإنّ لأسلوب الكناية جمال يحس به السامع ويجد له أثـراً لا يجده في التعبير الصريح وذلك ؛ لأنّ الكناية تعرض المعنى مـصوّراً بـصورة محـسوسة فيزداد تعريفاً ووضوحاً [١] .

وقد جاءت ألفاظ الكناية في ثلاثة مواضع من سورة يونس (**u**) , كنى سـبحانه بهـا عن بعض المعاني وأول هذه الألفاظ " قدم صدق " في قوله تعالى : " أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًـا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنـدَ رَبِّهِـمْ قَـالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ " (يونس٢) .

وقد بدأت الآية بالاستفهام الإنكاري لتعجّب الكافرين من الإيحاء إلى رجل منهم يكـون بشراً رسولاً . وتقدم الإنذار على البشارة ؛ لأنّ الآية في سياق الرد على المنكرين لوحدانيـة الله تعالى [٢] .

وقد جاءت الكناية في قوله تعالى : " قدم صدق " دلالة على أهميـة الإيمـان وترغيبـاً للناس حتى يؤمنوا , لما سيجدونه من خير ونعمة وفضل في الإيمان وسعادة في الدنيا وحياة طيبة في الآخرة . فجاءت القدم كناية عن المنزلة الرفيعة والعالية . يقول أبو الـسعود : " و الوجه أنّ الوصول إلى المقام إنما يحصل بالقدم وإضافتها إلى الصدق للدلالة علـى تحقيقهـا وثباتها , للتنبيه على أنّ مدار نيل ما نالوه من المراتب العليا هو صدقهم [٣] "

وهذا ثمن سعيهم وإخلاصهم في الإيمان والطاعة الخالصة لله تعالى , فجاءت الكناية تحمل معنى الإخلاص بالطّاعة التي كان ثمنها المنزلة العالية , وقد قاس الـصابوني القـدم

١- انظر , لاشين , عبد الفتاح , البيان في ضوء أساليب القرآن ط٣ ,١٩٩٢, دار المعارف, القاهرة, ٢٨٤ .

٢- وجاء تحليل هذه الآية في موضوع آخر من الدراسة .انظر ٦٤ .

١- أبو السعود , تفسير أبي السعود , ١١٧/٣

على اليد بقوله : " وقد استخدم سبحانه لفظة القدم الدالة على المنزلة ؛ لأنّ بها السبق كما سمّيت النعمة يداً لأنهّا تعطى بها [١] " . وربمّا لأنّ السعي نحو الطاعات والصدق في السير إلى الله له أداة ظاهرة وهي القدم ؛ فكأنّ الثواب مناسباً لجنس العمل والإيمان وأداته معاً ففي مقابل قدم الصدق المحققة للإيمان هنالك قدم الصدق باتجاه رضى الله عزّ وجلّ وثوابه وكرمه .

وقد جاءت خاتمة الآية: " قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ " مناسبة لفاتحتها من موقف الكافرين. ففي بداية الآية كان منهم العجب والحيرة من النبي (r) , أن يكون بشراً مثلهم وقد فسّروا هذا العجب بنسبته لأمر غيبيّ يفوق قوى البشر وهو السّحر . وفي ذلك إقرار بنبوة محمد (r) دون أن يشعروا , فالإعجاز أمر خارق لقوى البشر كما هو معروف , وهو من أسباب صدق النبوّة فهم نسبوا نبوة محمد (r) إلى السّحر الخارق لقوى البشر ولم ينسبوه إلى الله تعالى .

وجاءت الكناية في موضع آخر من سورة يونس في جملة " أتاها أمرنا " في قوله تعالى: " إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (يونس ٢٤) .

وهي " كناية عن العذاب والدمار [٢] " وجاء التعبير " بأمرنا " دلالة على تنوّع العذاب وتعدده الذي يقدر عليه سبحانه وتعالى . حيث جاءت الآية في سياق المثل الذي ضربه الله

٢- الصابوني , صفوة التفاسير , ١ / ٥٧٢ .

١- الصابوني , صفوة التفاسير ١/٥٨٤ .

سبحانه لبّيان تغيّر الدنيا وعدم بقائها على حال وسرعة انقضائها . دلالة على عظمته وقدرته على دمار أيّ شيء مهما كانت قوته , ومدى ضعف المخلوقات أمامه فأساليب العذاب متعددة . يقول الألوسي: " جاءها ما قدرناه من العذاب كالبرد والجراد والفأر والصرصر وغيرها [١] " .

وبما أنّ قدرة الله تعالى لا حدود لها ؛ لذا لم يصرح بماهية العذاب الذي سيحله بتلك الأرض تاركاً للقارئ تخيّل أيّ لون من ألوان العذاب المدمر . فدلّ على ذلك قوله تعالى : " فجعلناها حصيداً " أي محصودة لا شيء فيها [١] .

وآخر مواضع الكناية في سورة يونس " كلمة ربّك " في قوله تعالى " كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُواْ أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ " (يونس ٣٣)

والآية في سياق الحديث عن موقف الكافرين الذين رفضوا الإيمان بالله , حيث جاءت بعد التفصيل في نعم الله تعالى على الناس من رزق وملك السمع والبصر وتدبير الأمور , ومبيّناً لهم طريق الحق وطريق الضّلال . دلّ على ذلك اسم الإشارة " كذلك " في بداية الآية وهي إشارة إلى ما سبق من الكشف والتوضيح من دواعي الإيمان , وكشف حقيقة وجود الله وبيان الطريق أمام الناس جميعاً , فلم يبق لهم بعد ذلك حجة للكفر والجحود؛ ليستحقوا بذلك العذاب الأليم .

وقد بدأت الآية بقوله: " كذلك حقت كلمة ربك " فجاء قوله: " كلمة ربك " كناية عن قضاء الله تعالى فيهم وأنّ عذابهم دائم . وهي الكلمة الوحيدة التي لا تردد فيها , فلا كلمة تناقض الكلمة التي أوجبت عذابهم [٢] . وجاءت كلمة " حقّت " للدّلالة على المبالغة في

٢- الألوسي , روح المعاني ٩٦/٤ .

١- انظر , البقاعي ,نظم الدرر ٣ / ٤٣٩ .

ظهور العذاب حتى أنّه إذا أراد تشبيهه أو تقريبه لم يشبّه إلا بنفسه إشارة إلى حالهم وضلالهم [١] .

وجاءت الخاتمة تنفي الإيمان عنهم بقوله تعالى: " أنهّم لا يؤمنون "؛ لأنهّم تمردوا في كفرهم , فدلت الخاتمة على انتفاء عدم الإيمان وأنهّم مصروفون عن الحق إلى الضلال وكان ذلك باختيارهم [٢] , حيث عبّر سبحانه عن ذلك باستخدام المضارع ؛ دلالة على عدم تجدد الإيمان عندهم وبقائهم على حالهم من الكفر ومؤكداً على هذه الحالة بقوله: " أنهّم " لينفي عنهم الإيمان نفياً قطعيّاً .

وجاءت الكناية في سورة يونس(**u**) في هذه المواضع الثلاثة تبّين قدرة الله تعالى في مخلوقاته , وتبيّن أيضاً طرق الهداية والضلال أمام الناس وبيان عواقبها ترغيباً لهم ؛ للإيمان بوحدانية الله تعالى .

المجاز المرسل

وجاء المجاز في سورة يونس لإثبات الوحدانية لله تعالى وبيان رحمته للناس ؛ لنقلهم من حالة الأخلاق الذميمة إلى الهداية والنور . والمجاز هو: " كلّ كلمة أريد بها غير ما

٢- انظر , ابن عاشور , التحرير والتنوير , ١١ / ١٥٩ و ١٦٠ .

٣– انظر , الزمخشري , الكشاف , ٣ / ١٣٥ .

وضعت له في وضع واضعها ؛ لملاحظة بين الثاني والأول [١] " . أي استعمال اللفظة لغير ما وضعت له من اللغة لعلاقة بينهما .

ومن هنا يتّضح المعنى المراد للمجاز ويثبت الفرق بين المجاز والباطل من خلال العلاقة والمقصد المراد من المجاز , يقول الجرجاني : " إنّ كل جملة أخرجت الحكم عن موضعه من الفعل وضرب من التأول فهي مجاز [٢] " .

فالمجاز يجعل بين طياته ومضمونه معنى آخر يريد القائل أن يوصله للمستمع بطريقة يفهمها , ويقول فضل عباس في فائدة المجاز : " للمجاز دور في تفخيم المعنى وهو كنز من كنوز البلاغة , ومادته الشاعر المفلق والكاتب البليغ في الإبداع والإحسان والاتساع في طرق البيان , وأن يجري الكلام مطبوعاً مصنوعاً وأن يضعه بعيد المرام قريباً من الإفهام[٣] " .

والمجاز المرسل يوسّع اللغة ويساعد على الافتنان في التعبير , وتدعو إليه المبالغة في المعنى والإيجاز في العبارة فيؤكد المعنى المجازي ويقرره في النفوس ؛ لما فيه من البراهين والأدلة الدقيقة من خلال التلازم الذّهني بين السبب والمسبب زماناً ومكاناً , وكذلك الكلّ والجزء وهذا ما تفيده العلاقة بين الحقيقة والمجاز [٤] .

وجاء المجاز في سورة يونس في قوله تعالى : " شفاء لما في الصدور " في الآية " يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ" (يونس٥٧) .

١- الجرجاني , أسرار البلاغة ٣٥١ .
٢- السابق ٣٨٥ .
٣- فضل عباس , البلاغة فنونها وأفنانها , ١٤٩/٢ .
٤- انظر , لاشين , عبد الفتاح , البيان في ضوء أساليب القرآن , ١٥٥و١٥٧ .

والصدور هنا مجاز عن النفوس فالعلاقة بين النفس والصّدر علاقة محليّة , ويسمى هذا النوع من المجاز بالمجاز المرسل . فلفظة الصّدر محلّ والنفس حال فيه , فأراد سبحانه تطهير الأرواح عن العقائد الفاسدة والأخلاق الذميمة وإزالة الشكوك وسوء الاعتقاد إلى طريق الحق واليقين ؛ ليبتعد به من ظلمات الكفر والضّلال إلى النور والإيمان فيخلص من دركات النيران . يقول البقاعي رحمه الله : " ولماّ كان أليق ما يعمل بعد الحمية , تعاطي الدواء المزيل للأخلاط الفاسدة من الباطن والأخلاق الناقصة , كما سلّم البدن من الأفعال الدنيئة والمانع من نزولها في كلّ قلب عدم القابلية من بعضها بتراكم الظلمات فيها من صدأ المخالفة ودين الإعراض والغفلة . فيكون بذلك كالمرآة الصدئية لا تقبل انطباع الصور فيها [١] .

والآية في سياق فوائد القرآن الكريم , فهو كتاب جامع لفوائد عظيمة وتنبيهاً على أمر الوحدانية لله تعالى [٢] فبدأت الآية بالنداء للبعيد دلالة على أهمية أمر سيأتي وهو المواعظ العظيمة التي يتضمنها القرآن الكريم . وجاء عاما للناس جميعاً مؤمنهم وكافرهم للدلالة على أهميّة هذا القرآن وما فيه من فوائد .

وقد بدأت الآية بالعام وهو " الناس " ثم انتهت بالخاص وهم " المؤمنون " لبيان أنّ القرآن ليس خاصاً بأمّة محدّدة بل الذي يتفاعل معه ويستفيد مما ورد به , وهم المؤمنون خاصة , دلّ على ذلك أداة التحقيق " قد " تأكيداً عليه .

١- البقاعي , نظم الدرر , ٤٥٦/٣ .

٢– انظر , الزمخشري , الكشاف , ٣ / ١٥٠ .

وجاء التّنكير في قوله : " شفاء " و " هدى " و " رحمة " دلالة على كثرتها في القــرآن وذلك ترغيباً للناس حتى يؤمنوا وينتفعوا بما جاء فيه , وهي صفات وخصائص تميّــز بهــا القرآن الكريم [١] , دلّ على ذلك خاتمة الآية بتوجيه الكلام وتخصيصه للمؤمنين.

لقد تميّزت سورة يونس بالكشف عن نفسيّات البشر فتناولت الحــديث عــن مواقــف شهدت كشف العذاب ولو حين , كما في استجابة الله تعالى لطلب مشركي مكة كشف القحــط عنهم , لكنهم سارعوا إلى الكفر . وكذلك كشف العذاب عن قوم يونس في آخر لحظة , ومن مظاهر رحمته التي ظهرت في السورة أهل السفينة عندما أوشكوا علــى الغــرق والهــلاك فأنجاهم سبحانه وتعالى .

فهذه المشاهد كلّها تدلّ على رحمة الله تعالى بالناس في المواقف الصّعبة المهلكة , وكــشف حقيقة نفسياتهم في تلك اللحظات وفضحها بالاعتراف بوحدانيته تعالى .

ثالثاً

أساليب علم البديع

١– انظر , ابن عاشور , التحرير والتنوير , ١١/ ٢٠٣ .

يهتّم علم البديع بتحسين الكلام وتجميله , وينقسم في أساليبه إلى محسنات لفظيّة يعـود الحسن فيها إلى اللفظ , وأخرى معنويّة يعود الحسن فيها إلى المعنى . وقد تضمّنت الدّراسـة أربعة أساليب من هذه المحسنات كان لها حضورٌ واضحٌ وجليٌّ في سـورة يـونس (**u**) , حيث أفردت كلّ أسلوب بدراسة خاصة للآيات التي تضمنها . وهذه الأساليب هي :

- **الطّباق**

- **المقابلة**

- **الجناس**

- **المشاكلة اللفظية**

- **السجع**

الطّباق

وجاء الطّباق في سورة يونس (**u**) ؛ لإبطال الشّرك وإقامة الحجّة علـى المـشركين وفضح نفسيّاتهم , وقد تحدّث الشيخ عبد القاهر الجرجاني عن دور الطّباق في أداء المعـاني

بقوله : " وأما التطّبيق والاستعارة وسائر أنواع البديع فلا شبهة أنّ الحسن والقبح لا يعترض الكلام بهما من جهة المعاني خاصّة من غير أن يكون للألفاظ في ذلك نصيب أو يكون لها في التحسين أو خلاف التحسين تصعيد أو تصويب ... ويضيف وأمّا التّطبيق فأمره أبين وكونه معنويّاً أجلى وأظهر , فهو مقابلة الشّيء بضده والتّضاد بين الألفاظ المركبة محال وليس لأحكام المقابلة ثم مجال [١] " .

ويبدو ممّا سبق أنّ الطّباق لا يكتفي بعرض لفظة مقابل لفظة , وإنمّا يريد تمكين المعاني وإظهارها وتقريبها إلى عقل القارئ . فاللفظة بذاتها لا يكون لها معنى حيث إنّ السياق هو الذي يخرج الألفاظ من معناها إلى معان أخرى مختلفة , يقول الجرجاني : " إنّ الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجرّدة ولا من حيث هي كلم مفردة , وإنّ الألفاظ ثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها وما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ , وممّا يشهد لذلك أنّك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر [٢] .

فالألفاظ لا تستخدم لأنفسها لتكون أدّلة على المعاني وبالتالي يظهر أنّ الطباق ليس ألفاظاً متضادة وشكلية تحسن وتجمل فقط , وإنمّا يخرج منها إلى دلالات ومعان جديدة يستطيع الباحث من خلالها اكتشاف أسرار الكلام .

وتناولت الدراسة الطباق من خلال أربعة مواضع من سورة يونس عليه السلام كما في " يبدأ الخلق ثم يعيده " في قوله تعالى :" إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ

١- الجرجاني , عبد القاهر , أسرار البلاغة ,٢٠

٢-الجرجاني , عبد القاهر , دلائل الإعجاز , ٤٦

ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ " (يونس٤)

ويؤكّد سبحانه في هذا الطبّاق على أنّه صاحب الأمر في الخلق والإعادة , وذلك في سياق الحديث عن حقيقة الموت والرجوع إليه سبحانه مؤكّداً على ذلك باستخدام أداة التوكيد " إنّه " واقترانها مع الهاء العائدة إلى الله سبحانه دلالة على بطلان ما يعتقدونه من الشركاء لله . يقول تعالى على لسانهم " هؤلاء شفعاؤنا عند الله " (يونس ١٨)

وتناول سبحانه في الآية مصير المؤمنين والكافرين فبدأ الحديث عن مظاهر قدرته في مخلوقاته . يقول أبو السعود : " هو استئناف علل به وجوب المرجع إليه سبحانه وتعالى, فإنّ غاية البدء والإعادة هو جزاء المكلفين بأعمالهم حسنة أو سيئة [١] " . فغاية البدء والإعادة هو الجزاء وما يناله كل طرف وهذه هي الغاية والهدف المراد .

لقد مهّد سبحانه لقوله " ثم يعيده " في قوله " إليه مرجعكم " في فاتحة الآية تأكيداً للبعث والحساب بعد الموت وأنهّم سيرجعون إلى الله بعد الموت ليحاسبوا , حيث قدّم الجار دلالة على اقتصار الرجوع إليه وحده سبحانه لا إلى المعبودات الأخرى التي عبدوها وقد أكّد ذلك باستخدام الحال " جميعاً " تنبيهاً على أنّه لا إله غيره . ولعلّ كلمة " جميعاً " تشير إلى أنّ الرجوع إليه سبحانه يشمل العاقل وغير العاقل ممن عبدوها أو ظنوا أنها تضر وتنفع.

وتضمّنت جملة " وعد الله حقّاً " توكيداً لمضمون الجملة السابقة " إليه مرجعكم " فنصب " وعد " على المفعولية المطلقة ويسمى – باصطلاح النحاة – مؤكدا لنفسه ؛ لأنّ

١– أبو السّعود , تفسير أبي السعود , ٣ / ١١٩ .

مضمون " إليه مرجعكم " الوعد بإرجاعهم وتقدير الكلام (وعدكم الله وعداً حقاً) وجاءت كلمة " حقّاً " لتؤكد هذا الوعد ويسمى مؤكّداً لغيره وهو الوعد بالرجوع إلى الله تعالى [١] .

وجاء التّعبير بالبدء والإعادة للخلق بصيغة الفعل المضارع الذي يحمل صفة متجددة على سبيل الاستمرار في الخلق و الإعادة . وقدّم سبحانه الذين آمنوا على الذين كفروا ثواباً لهم وتكريماً , لما قدّموه من حسن عبادة وطاعة صادقة لله , فجاء التعبير في حسابهم بقوله: " بالقسط " دلالة على العدل والإنصاف لأمرهم وأخذ ما وعدهم الله من حسن ثواب .

وأخّر سبحانه الحديث عن الكافرين وحسابهم , وجاء التفصيل فيه بقوله : " وَالَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ " ترهيباً لهم من خطر الطريق التي يسلكونها والتي تؤدي بهم إلى العذاب الشديد يوم القيامة , وزاد في ذلك تقديم المجرور في قوله : " لهم عذاب " فخصهم بالعذاب توبيخاً لهم منه .

وقد جاء هذا الطّباق في موضع آخر , في سياق يختلف عن سياق هذه الآية كما في قوله تعالى : " قلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ " (يونس٣٤) .

ليتّضح بذلك أنّ السياق يؤدي دوراً كبيراً في خروج اللفظ من معنى لآخر بل له الدّور الأهم في ذلك , فجاء الطباق هنا ليثبت إبطال ما يدعيه الكافرون من إشراك بالله تعالى , ويقيم عليهم الحجة بذلك وكما سبق ذكره , إنّ فهم الطباق لا يقوم على اللفظة وضدها بل لا بد من النظر إلى سياق الآية , والذي يشير إلى وحدانية الله سبحانه خاصة في ترتيب الموضوعات التي سبقت موضوع بدء الخلق وإعادته , يقول البقاعي : " لقد استنارت جميع الجهات ورتّبت هذه الجمل أحسن ترتيب , وذلك أنّه سبحانه سألهم أوّلاً عن

١- انظر , ابن عاشور , التحرير والتنوير , ١١ / ٩١ .

سبب دوام حياتهم وكمالها بالرزق والسمع والبصر , وعن بدء الخلق وفي إخراج الحي من الميت وما بعده . وذلك تنبيها للنظر في أحوال أنفسهم مرتباً على الأوضح فالأوضح , فلمّا اعترفوا به كله أعاد السؤال عن بدء الخلق ؛ ليقرن به الإعادة تنبيها على أنهّما بالنسبة إلى قدرته على حد سواء[١] " .

وجاء الاستفهام في قوله: " هل من شركائكم ... " عن البدء والإعادة في الخلق لتبكيت الكافرين وإلزامهم بالاعتراف بوحدانية الله , فجعل سبحانه الإعادة لسطوع البراهين القائمة إليها بمنزلة البدء في إلزامهم ولم يبال بإنكارهم لها ؛ لأنهم مكابرون فيه والمكابر لا يلتفت إليه , والجواب في قوله تعالى " قل إن

الله يبدأ الخلق ثم يعيده " يدل على قيام الحجة والإثبات . ففي ذلك ينتظم السؤال والجواب ويفهم الحصر بدلالة الفحوى وكأنّك تقول : من يهب الألوف زيد أم عمر ؟ فقيل زيد يهب الألوف [٢] . وبذلك يكون الجواب غاية في الإثبات والموضوعيّة وإقامة الحجة والبراهين عليهم . وزاد في ذلك التبكيت وفضح نفسيات الكفار خاتمة الآية بقوله تعالى : " فأنىّ يؤفكون " وذلك تعجباً منهم ومن طريقة تفكيرهم , فبعد كلّ هذه الإثباتات والدلالات والبراهين لا يزالون في الكفر والجحود .

ومن مواضع الطّباق في سورة يونس الإنذار والبشارة في قوله تعالى: " أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ " (يونس ٢) . فجمع سبحانه بين الإنذار والبشارة . وجاء الإنذار للكافرين عن كلّ معصية صغيرة أو كبيرة , وكلّ هفوة جليلة أو حقيرة على

١- البقاعي , نظم الدرر , ٣ / ٤٤١ .

٢- انظر , الألوسي , روح المعاني , ٤ / ١٠٦ .

اختلاف الرّتب والمقامات [١] , وبالمقابل جاء بالبشارة وخصها بالمؤمنين فقال : " و بشّر الذين آمنوا " . والبشارة تكون بالقبول والتكفير عن السيئات والتجاوز عن الأخطاء .

وقد جاء هذا التطابق بين اللفظتين متفقاً ومضمون الآية الذي تمّ الإشارة إليه في موضوعات سابقة وهو الوحدانيّة لله وهو الموضوع الأهم في العقيدة , وهو الذي يتوقف عليه مصير الناس على اختلاف أديانهم . فجميع الأديان يجمعها توحيد الله وعدم الإشراك به فجعل سبحانه هذا الموضوع مصيرياً في آخرة الناس يتعلق بالجنة والنار . فسبق سبحانه الإفصاح عن هذا الموضوع والحديث عنه بالتطابق بين الإنذار للرافض له والبشارة لمن آمن به ؛ دلالة على أهميته كما هو معروف عند العرب إنهّم إذا اهتمّوا بالشيء قدّموه . فكان موضوع الوحدانية لله هو الموضوع الأهم في السورة كاملة . فجاء الطباق بين الإنذار والبشارة في بداية السورة غاية في البلاغة , ولفت النّظر للقارئ لعدم الإشراك بالله لتتناسب مع البعد المكاني والزماني للدعوة الإسلامية في مكة .

كما أنّ تقديم الإنذار على البشارة جاء مناسباً مع بدء الآية بالمشركين أن يكون الرسول (**r**) بشراً ؛ لذا جاء التحذير والتخويف للرد عليهم , ومع أنّ المراد بالآية أهل مكة إلاّ أنّ التعبير جاء في قوله : " للنّاس " للدلالة على أن هذا الإنكار ليس خاصاً بهم , فطريقة تفكير الكفار واحدة , وأهل مكة يمثلون شريحة من شرائحهم [٢] .

١- انظر ,البقاعي , نظم الدرر , ٣/ ٤١٤ .

٢- انظر,ابن كثير(٧٧٤),أبو الفداء إسماعيل بن كثير, تفسير القرآن العظيم, ط١, ١٩٨٣ , دار يوسف ,لبنان, ٣٦٨/٢

وتعد مكيّة السورة سرّاً آخر من أسرار تقديم الإنذار على البشارة , إذ إنّ أكثر أهل مكة مشركون معاندون ومتكبرون فكان مقتضى هذا تقديم الإنذار على البشارة , فكان أكثرها في بيان الصفات والخلائق والعادات القبيحة والضارة [١] .

وتضمّنت الآية السابقة مفارقة في قوله تعالى : " أكان للناس عجباً ... " وبين قوله تعالى: " وقال الكافرون إنّ هذا لساحر مبين " . فهم أنكروا أن يوحى إلى بشر مثلهم, ثم انتهوا بالإقرار بنبوّته من حيث لا يدرون , فهم أقرّوا بأنّ ما جاء به لا يقوى عليه الإنسان العادي ؛ لذا لم يكتفوا بوصف ما فعله بالسحر بل بالمبين أيضاً . وكان يجدر بهم المسارعة إلى الإيمان لا العناد والإنكار الذي لا فائدة منه .

وجاء الطّباق في موضع آخر من سورة يونس بين الشر والخير في قوله تعالى: " وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ " . (يونس ١١) .

والآية في سياق الحديث عنه سبحانه في حكمه ولطفه بعباده , بأنّه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم في حال غضبهم وأنّه يعلم منهم عدم القصد بالشر إلى إرادة ذلك ؛ فلهذا لا يستجيب لهم كما يستجيب إذا دعوا لأنفسهم أو أموالهم أو أولادهم بالخير والبركة والنماء , فلو يعجل لهم الاستجابة في ذلك كما يستجاب لهم في الخير لأهلكهم [٢] .

وقد جاء الطّباق في سياق التعنت والتزمت على الباطل وكشف نفسيّات الناس , وكان من ضمن معاصيهم استعجالهم العذاب فقال تعالى على لسانهم: " وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن

١– انظر , رضا , محمد رشيد , تفسير المنار , ١١ / ٥٠٨ .

٢– انظر , ابن كثير , تفسير القرآن العظيم , ٢ / ٣٧١ .

كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاء أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ " (الانفال٣٢) . ممّا يدلّ على مدى استكبار هؤلاء مع ربّ العالمين , وسخريتهم واستهزائهم برسالته سبحانه وتكذيبهم إيّاها , بدا ذلك واضحاً من خلال الآية الكريمة , وكان يجدر المسارعة إلى الإيمان لا طلب حلول العذاب بهم .

ومن ظلم الناس لأنفسهم إذا غضب أحدهم دعا على نفسه وولده بالشر ولو عجل الله ذلك لهم لجاءهم الهلاك والموت الذي تمنوّه ولكن من رحمته سبحانه أنّه يؤخر العذاب رحمة ورأفة لحاله , لعله يرجع ويستغفر فيتوب الله عليه [١] . وقد جاءت أداة الامتناع " لو " دلالة على منع تحقيق رغبتهم بالشر ليتضح أنّ هذا المنع رحمة لهم .

وجاء ذلك باستخدام الطباق بين الخير والشر حتى يدرك الإنسان بعقله ويستحضر الحالتين فيصبر . ومن خلال ذكر حالة الشر والذنوب والمعاصي وبالمقابل ذكر حاجته لله تعالى وطلب المغفرة يكون كبح نفسه من خلال إظهار الضد لها , فجاء الطباق غاية في البلاغة بقيام الحجة عليهم وإذعانهم .

ودلّت لفظة " استعجالهم " التي نسبها سبحانه للكافرين والتي تحمل معنى المبالغة في الطلب دلالة التعجل الكثير منهم في الخير , حيث تعدى هذا الفعل إلى مفعول به وهو " الخير " دلالة على الطمع في الرغبة بالخير التي تسيطر على نفسياتهم [٢] .

وقد عدل سبحانه عن التعبير بالمصدر المناسب وهو التعجيل إلى الاستعجال , وذلك إيذاناً بسرعة إجابته لهم وإسعافه بطلبهم حتى كان استعجالهم بالخير تعجيلا لهم [٣] .

١- انظر , الشعراوي , تفسير الشعراوي , ٩ / ٥٧٦٨ .
٢- انظر , ابن عاشور , التحرير والتنوير , ١١ / ١٠٧ .
٣– انظر , الدرويش , محيي الدين , إعراب القرآن وبيانه , ٣ / ٣١١ .

وجاءت خاتمة الآية بقوله تعالى: " يعمهون " دلالة على حالة التردد في العتو والتمرد على الله سبحانه [١] . وجاء التعبير بالفعل المضارع ليدلّ على استمرار هذه الحالة السيئة التي هم فيها لتعكس حالة من عدم الاستقرار عندهم .

وجاء الطباق في موضع آخر من السورة بين لفظتي " حلالاً وحراماً " في قوله تعالى " قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ " (يونس٥٩) .

وسياق الآية يتناول الحديث عن الإيمان بأنّ الحلال والحرام بيد الله سبحانه وتعالى. فهو مقسّم الأمور إلى حلال وحرام فطابق سبحانه بينهما ؛ ليكون الأمر كلّه مرجعه إليه سبحانه فهو المشرّع لا أحد سواه . يقول البقاعي : " ويدلّ ذلك على بيان فساد الرزق وأنه جليّ الفساد وظاهر العوج [٢] " . ويقول تعالى على لسانهم: " وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَـذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاء سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ " . (الأنعام١٣٩)

ويؤكّد سبحانه على إنكار هذا العمل باستخدام الاستفهام في أكثر من موضع في الآية كما في استخدام الهمزة في قوله تعالى: " أرأيتم " وقوله " آلله أذن لكم " توبيخاً لهم على ما قالوه وتقسيمهم الرزق بدون الرجوع إلى منهج الله سبحانه . فموضوع الحلال والحرام يحتاج إلى مشرّع حكيم ليحكم فيهما بالعدل والحكمة . فكيف تقبلون هذه القسمة من عند أنفسكم افتراء ولا تقبلونها من الله الحق سبحانه . دلّ على ذلك فاصلة الآية في قوله " أم

١- انظر , الصابوني , صفوة التفاسير , ١ / ٥٧٥ .

٢- البقاعي , نظم الدرر , ٣ / ٤٥٨ .

على الله تفترون " فجاء التّعبير بالمضارع دلالة على استمرارية الافتراء عندهم والتعنت عليه .

وجاء الطّباق في موضع آخر بين لفظتي " الهداية والضلال " في قوله تعالى : " قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ "(يونس١٠٨) .

وبدأت الآية [١] بصيغة الأمر " قل " للتّنبيه ومقترنة بأداة النداء " يا أيّها الناس " للفت انتباه السامع لأهميّة أمر ما سيأتي , فقد طابق سبحانه في هذه الآية بين الهداية والضلال فكانت خاتمة السورة به . يقول أبو السعود : " والمراد تنزيه ساحة الرسالة عن شائبة غرض عائد إليه (r) من جلب نفع أو دفع ضرر , كما يلوح به إسناد المجيء إلى الحق من غير إشعار يكون بذلك بواسطته [٢] . ويؤكّد سبحانه ذلك بأداة التحقيق " قد " ؛ دلالة على طرق الهداية والضلال أمام الناس جميعاً . كما أنّ الآية بيّنت عاقبة المهتدي والضال وجاء القصر في جواب الشرط " فإنمّا " ليؤكّد هذا الأمر . وأبرزت المقابلة في قوله: " فمن اهتدى ... ومن ضل ... " التباعد بين الموقفين موقف اختيار الهداية وموقف اختيار الضلال .

وجاء السياق خطاباً من الله لسيدنا محمد (r) في دعوته لقومه وطمأنة له على أنّ أمر الهداية والضّلال هو بيد الله سبحانه وإنمّا عليه البلاغ فقط . دلّ على ذلك فاصلة الآية في قوله: " وما أنا عليكم بوكيل " , فجاءت بصيغة الجملة الإسميّة المنفية دلالة على أنّ مهمّة الرسول(r) ثابتة , وهي تبليغ الرسالة وبيانها للناس لتتّضح العلاقة بين فاتحة الآية " قل يا أيّها الناس " وخاتمتها في بيان مهمّة الرسول(r) وإنّه عبد مأمور من الله تعالى.

١- وتضمنت الآية أسلوب النداء وقد سبق الحديث عنه. انظر ٧١ .

٢- أبو السعود ,تفسير أبي السعود , ١٨١/٣ .

يقول تعالى في كتابه العزيز مخاطباً الرسول (r) : " إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ " . (القصص ٥٦)

ويتّضح من خلال ما سبق من موضوعات الطّباق أنهّا تتضمن إبراز قدرة الخالق سبحانه وتعالى بين قدرته على الإحياء والإماتة أو قدرته على البدء والإعادة , وبيده أمور الحلال والحرام والهداية والضلال . وكلّ ذلك ردّاً على المشركين الذين زعموا أنّ أصنامهم لديها القدرة على كلّ هذه الأعمال , وكأنّه سبحانه يريد القول لهم : هذه دلائل قدرتي فأروني دلائل قدرة معبوداتكم ؛ ليقيم الحجة عليهم لعلّهم يتعظون قبل فوات الأوان.

المقابلة

وجاء أسلوب المقابلة في موضعين من سورة يونس يتضمنان موضوع الدعوة إلى الله تعالى وتوحيده وعدم الشرك به , وبيان مآل المؤمن والكافر يوم القيامة . والمقابلة شبيهة بالطباق من حيث التضاد بين الكلمات , فإذا كان الطباق يقوم على التضاد بين الكلمات , فالمقابلة تقوم على التضاد بين الجمل . وتؤدّي المقابلة دوراً كبيراً في تمام المعنى وإثرائه .

والموضع الأول للمقابلة في سورة يونس (**u**) بين جملة :(إن يمسسك الله بضر) وجملة : (إن يردك بخير) في قوله تعالى " وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ " (يونس١٠٧) .

وجاءت المقابلة في سياق الدعوة إلى التوحيد والإخلاص لله تعالى , فكلّ شيء بيد الله هو الضّار والنّافع فلا شيء يقوى عليه سبحانه , وذلك ردّاً وإبطالاً للمعتقدات الفاسدة التي سادت في الجاهلية كعبادة الأصنام باعتبار أنهّا تضرّ وتنفع وتعطي وتمنع . فجاء التقديم للمسّ بالضرّ على إرادة الخير ليتناسب مع سياق الآية والحديث عن تلك المعتقدات.

وتقيم الآية الحجة على الناس وتؤكّد لهم جميعاً أنّ الضّرر والنفع بيد الله سبحانه , دلّ على ذلك أداة الحصر " إلاّ " في قوله " إلاّ هو " تأكيداً على أنهّما بيد الله وحده . يقول الألوسي : " إنّ أمر الله تعالى لا أحد يقدر على ردّه كائناً من كان فيدخل فيه الأصنام دخولاً أولياً وهو بيان بعدم ضرّها بدفع المحبوب ووقوعه المستلزم لعدم ضرّها برفعه أو بإيقاع المكروه استلزاماً جلياً ... ولعل ذكره الإرادة مع المسّ مع الضرّ مع تلازم الأمرين؛ لأنّ ما

يريده سبحانه ويصيب ما يصيب لا يكون إلاّ بإرادته تعالى للإيذان بأنّ الخير مقصود لله تعالى بالذات . والضرّ إنمّا يقع جزاء على الأعمال وليس مقصوداً بالذات [١] " .

وجاء التعبير بالإرادة مع الخير والمسّ مع الضّر مبالغة في سلب المقدرة عمن يريد معارضته مراده سبحانه وتعالى , سواء من الأصنام أو غيرها ؛ لأنّ إرادة الله لا يستطيع أحد ردّها [٢] .

وقابل سبحانه بين حالتي الضّر والخير اللتين تصيبان الإنسان ؛ ليؤكّد من خلالهما أنّه المسيّر لهما والعالِم بهما وليست الأصنام . فاستخدم أسلوب التّرغيب والترهيب في آن واحد ليسدّ الطريق أمام اعتقاداتهم الفاسدة بنسبة هذه الإرادة للأصنام التي لا تضر ولا تنفع من دون الله . وكأنّه يتحداهم بها إن كانت تقدر على القيام بهذه الأعمال النافعة أو الضارة , وعبّر سبحانه بالضر والخير بالتنكير لعموم الحديث وشموله جميع هذه الأصناف سواء كانت نافعة أو ضارّة .

وقد جاء الحديث في الآية عن الضّر وكشفه وعن الخير وثباته وأنّ ذلك كله بيد الله سبحانه , ودلّ على التعبير بالجملة الاسمية في جواب الشرط عند كشف الضر وإرادة الخير؛ لتؤدي معنى الثبات والديمومة , حيث جاء الخطاب للرسول (r) في قوله: " يمسسك " وقوله: " يردك " , حيث سادت الرّحمة والمغفرة على أجواء الآية كاملة من رفع الضّر وثبات الخير ؛ لتتأتي فاصلة الآية بقوله: " وهو الغفور الرحيم " ؛ لتتناسب مع سياق الآية كاملة .

١- الألوسي , روح المعاني ,١٨٧/٤ .

٢- انظر , ابن عاشور , التحرير والتنوير , ١١ / ٣٠٦ .

وجاء الموضع الآخر للمقابلة في سورة يونس في أربع آيات , بيّنت مآل المؤمن والكافر يوم القيامة وذلك في قوله تعالى " إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ (٨) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِين " (يونس ٧ – ١٠)

لقد قابل سبحانه بين نوعين من البشر الذين ابتعدوا عن آيات الله وجحدوا بها والذين آمنوا بها فقدّم أولئك الذين جحدوا بآياته ؛ لأنّ الحديث عنهم جاء بعد ذكر آيات الله وفضائله على العباد ودلائل قدرته التي تستوجب له الطاعة والعبادة في الآية التي قبلها , وبدأت الآية بالجملة الاسميّة للدلالة على أنّ هذه الأحوال ثابتة يوم القيامة وهذا هو المصير المحتّم لكلّ البشر وهو الخلود الأبديّ , إمّا في النار وإمّا في الجنّة . ودلّ تكرار اسم الموصول " الذين " على أنّ الخطاب عام للناس جميعاً مؤمنهم وكافرهم , وتأكيداً على أنّ المؤمن حاله غير حال الكافر .

ولأنّ الرجاء معدن السّعادة وغايته , كان الرجاء أقرب إلى الحثّ على الإقبال فقال تعالى بحقهم : " إنّ الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها " [١] . فهؤلاء الكافرون كان همهم الدنيا والسعادة فيها , ولم يهتموا لأمر الآخرة ونعيمها الأبدي فقد اكتفوا بالحياة الدنيا , دلالة على قصر نظرهم وجهلهم فجاءت الفاصلة تصفهم بالغفلة عن آيات الله .

١– انظر , البقاعي , نظم الدرر , ٣ / ٤٢١ .

وقد أشار أبو حيان إلى أنّ الضمير " هم " في قوله تعالى: " هم عن آياتنا غافلون " إشارة إلى أنّ الكفار ينقسمون إلى قسمين : المتوسّع في الدنيا والناظر في آياتها فلم تؤثر به شيئاً , فهو يعلم الحق ولكن يحيد عنه , والقسم الآخر هو العادم التوسع والغافل عن آيات الله[١] . وعلى الرغم من ذلك فقد جمع هؤلاء الطرفين الغفلة عن آيات الله تعالى وهم في العقاب معاً , لأنّ الإيمان أمر عقلي يصل الإنسان إليه بعقله من خلال مشاهداته الكونية في الدنيا .

وتقدم المجرور بقوله: " عن آياتنا غافلون " دلالة على أنّ غفلتهم عن آيات الله خاصة دون غيرها حيث أصبحت غفلتهم هذه دأباً وسجيّة وتؤول إلى معنى الإعراض عن آيات الله , لتنفي أنّ المراد بها الغفلة عن بعض الآيات في بعض الأوقات , إنمّا غفلتهم هي دائمة عن آيات الله في كلّ الأوقات وليس في بعضها [٢] , دلّ على ذلك التعبير بالجملة الاسمّية في فاصلة الآية :" الذين هم عن آياتنا غافلون " .

وقد جاءت أداة التوكيد " إنّ " لتؤكّد المعنى الذي يحمله اسم الإشارة " أولئك " من صفات للكافرين وبعدهم عن رحمة الله تحقيراً وتوبيخاً لهم في قوله تعالى: " أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون " وهو استحقاقهم النار فهي مصيرهم الأبدي ؛ لأنّ الكفر واقتراف الذنوب حالة دائمة ومستمرة عندهم دلّ على ذلك التعبير بالماضي والمضارع معا في قوله " بما كانوا يكسبون " . ولأنّ الكفر واقتراف الذنوب حالة مستمرة عندهم بدأت الآية بالجملة الاسمية الدالة على ثبات العقاب وإدامته في قوله : " أولئك مأواهم النار " .

١– انظر , أبو حيان , البحر المحيط , ٥ / ١٣١ .

٢- انظر , ابن عاشور , التحرير والتنوير , ١١ / ١٠٠ .

وأمّا النّوع الآخر من البشر وهم المؤمنون , فقد قال تعالى بحقهم : " يهديهم ربهم بإيمانهم " وجاء التعبير بالهداية باستخدام المضارع لاستمرار الهداية ودوامها من خلال الإيمان , وقد ذكرت لفظة " ربهم " تشريفاً لهم وكرامة وأنّ مصيرهم هو جنات النعيم يقول تعالى : " تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم " دلالة على الخيرات التي تنتظرهم في الآخرة .

وقد وصف سبحانه حياة المؤمنين في الجنة بقوله : " دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِين " . فهم يبتدئون بتنزيه الله تعالى عن كل عيب ونقص ويختمون بحمده وشكره والثّناء عليه [١] ؛ دلالة على الحياة الطيبة التي تنتظرهم في الآخرة جزاء لإيمانهم , دلّ على ذلك حرف الجر " في " الذي يفيد الظرفية المكانية . وجمع جنات وإضافتها إلى النعيم في قوله: " جنات النعيم " دلالة على كثرة الخيرات وتعددها , وقد جاء التفصيل بذكر حال المؤمنين ترغيباً لهم ليثبتوا على الحق والإيمان للتغلب على الشهوات ومحاربة الرذائل .

وقابل سبحانه بين حياة المؤمن والكافر , فجاء التعبير بالمضارع في حياة الكافر بقوله: " لا يرجون " وهي الاستمرار على الذنوب وعدم التوبة عنها والعناد على الكفر . فالكفر حالة مستمرة عندهم , دلّ على ذلك الرضى والقبول لما هم فيه من الكفر بقوله : " ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها " , بينما جاء التعبير بالاسم في حياة المؤمن بقوله : " الذين آمنوا " . فالإيمان حالة ثابتة لا تتغير مهما تعددت الظروف والأحوال الدنيوية , فالصبر على الحق صفة ثابتة عندهم . وكون الجنة تحتاج إلى عمل جاء التعبير بقوله : "

١- انظر , الشعراوي , تفسير الشعراوي , ٩ / ٥٧٥٢ .

وعملوا الصالحات " ليدلّ على مدى القناعة التي ملأت نفوسهم ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم لينالوا به الهداية فجاء بقوله : " يهديهم " , فتكون الهداية نتيجة الإيمان وهي صفة مستمرة عند المؤمن ؛ دلّ على ذلك التعبير بالمضارع لتكون السعادة في الدنيا نتيجة هدايتهم . فتكون السعادة في الدنيا للمؤمن ثمناً لإيمانه وهدايته , كما هي للكافر بأخذه ما شاء من المحرمات .

وأمّا نهاية كل منهما فجاءت المقابلة بين نهاية الكافرين بقوله : " أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون " وبين نهاية المؤمنين بقوله " تجري من تحتهم الأنهار في جنّات النعيم " ؛ لبيان مصير كل منهما وهو الفوز والنجاة للمؤمن تبشيراً له , والعذاب وسوء المآل للكافر تحذيراً له وتوبيخاً من سوء حياته الآخرة .

وجاءت المقابلة هنا لتبرز التباعد بين عاقبتي المؤمن والكافر , وكأنّه سبحانه يريد لقارئ النص القرآني إمعان النظر والتدبر في المصيرين ليحسن الاختيار .

الجناس

وجاء الجناس في سورة يونس (**u**) ليبّين فضل الله ونعمته التي أنعمها على بني إسرائيل من المسكن والمأكل , وصفات المؤمنين وتأييد الرسل بالمعجزات الصادقة وفضح الكافرين وإبطال معتقداتهم الفاسدة .

والجناس من المحسنات اللفظية , ولا شك أنّ للفظ دوراً كبيراً لإضافة الجمال على الجملة لما يحدثه من موسيقى تطرب لها أذن السامع فترتاح لها نفسه . يقول عبد الفتاح لاشين : " إنّ التجاوب الموسيقي الصادر من تماثل الكلمات تماثلاً كاملاً أو ناقصاً تطرب له أذن السامع و تهتزّ له أوتار القلوب . والمجنّس يقصد اجتلاب الأذهان وخداع الأفكار , حيث يوهم أنّه يعرض على السامع معنى مكرّراً أو لفظاً مردوداً لا يجني منه السامع غير الطول والسآمة , فإذا هو يروع ويعجب ويأتي بمعنى مستحدث يغاير ما سبقه كل المغايرة فتأخذ السامع الدهشة لتلك المفاجأة غير المتوقعة [١] " .

ويظهر مما سبق أهمية المعنى في الجناس , فاللفظ وحده لا يعطي استحساناً إلاّ إذا أعطى معنى مناسباً , ففضل الجناس يظهر من خلال اتحاد اللفظ مع المعنى , ولذلك يقول عبد القاهر الجرجاني : " إنما يعطي التجنيس من الفضيلة أمراً لا يتمّ إلا بنصرة المعنى , إذ لو كان باللفظ وحده لما كان مستحسناً ولما وجد فيه إلا معيب مستهجن لذلك ذمّ الاستكثار منه والولوع به ؛ وذلك أنّ المعاني لا تدين في كل موضع لما يجذبها التجنيس إليه , إذ الألفاظ خدم المعاني والمصرفة في حكمها [٢] ".

١- لاشين , عبد الفتاح , البديع في ضوء أساليب القرآن ,ط٣ , ١٩٨٦, مكتبة الإنجلو المصرية , مصر, ١٦٧ .

٢- الجرجاني , أسرار البلاغة , ٨ .

ويدفع الجناس إلى الميل للإصغاء إليه ؛ لأنّ مناسبة الألفاظ معاً تحدث ميلاً وإصغاء إليها ولأنّ اللفظ إذا حمل على المعنى ثم جاء والمراد به معنى آخر , كان للنفس تشويق إليه ورغبة في معرفته , ويعد ألطف مجاري الكلام [١] .

وتناولت الدراسة الجناس في ثلاثة مواضع من سورة يونس(u), أوّلها كما في قوله: " أحسنوا الحسنى " في قوله تعالى : " لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون " (يونس٢٦) .

والحديث في سياق جزاء المؤمنين الذين أحسنوا في هذه الدنيا , والحسنى هي الجنة التي أعدها الله للمؤمنين . ولماّ كان الوجه هو الذي يحمل معاني الشرف والكرامة والهيبة لصاحبه ذكر سبحانه تحريم النار على وجوه المؤمنين فقال تعالى : " ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة " دلالة على أنّ المصون من الرهق أشرف أعضائهم " [٢] . كما أنّ الوجه تبرز عليه علامات العذاب والذل , وبالمقابل تظهر علامات الفرح وكأنّه مرآة تعكس حقيقة ما في داخل الإنسان .

وزيادة على ذلك الشرف والكرامة رؤية وجه الله سبحانه فقد ذكر " أنّ رسول الله(r) تلا هذه الآية " للذين أحسنوا الحسنى وزيادة " قال إذا دخل أهل الجنّة الجنّة وأهل النّار النّار نادى منادٍ : يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه. فيقولون: وما هو ؟ ألم يثقل موازيننا ويبيّض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار ؟ قال : فيكشف لهم الحجاب , فينظرون إليه قال : فو الله ما أعطاهم شيئاً أحبّ إليهم من النظر إليه , ولا أقرّ لأعينهم " [٣]

١- انظر , حسين , عبد القادر , فن البديع, ط١ , ١٩٨٣ , دار الشروق , بيروت, ١٠٩

٢– وسيأتي الحديث حول هذه الجملة مفصلاً . انظر ١٧٦ .

٣–ابن حنبل(ت ٢٤١), أبو عبد الله الشيباني أحمد بن حنبل, مسند الإمام أحمد بن حنبل , مؤسسة قرطبة , القاهرة .٤/ ٣٣٣

وفي هذا الحديث دليل على حقيقة رؤية وجه الله في الآخرة, وهي نعمة عظيمة وشرف كبير للمؤمن عبّر عنها سبحانه بقوله " وزيادة " .

وقد جاء الجناس في الآية بين " أحسنوا " وتعني القيام بالأعمال الحسنة التي يقوم بها المؤمنون في الدنيا فجاءت بصيغة المضارع ؛ دلالة على الاستمرار بهذه الأعمال , وبين " الحسنى " وهي الجنة . فكما أنّ الخير والصلاح في كل من أعمال المؤمنين في الجنة وحيث انتشار الفضائل وانعدام الرذائل , جاء التعبير كذلك بالحسنى بالاسم , حيث يحمل دلالة الثبات في الفضيلة والجمال ليتطابق مع أعمال المؤمنين وليتفق بذلك اللفظ مع المعنى ليأتي الكلام غاية في البلاغة .

وفي موضع آخر من سورة يونس يأتي الجناس في قوله تعالى : " وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُون " (يونس٨٢) . فجانس سبحانه بين الفعل " يحق " والاسم " الحق " في سياق الحديث عن السحر الذي أبطله سبحانه وتعالى على يد موسى (**u**) ليؤكّد نصرته على فرعون وقومه , وإبطال ادعاءاتهم الباطلة . دلّ على ذلك التوكيد الذي تحمله لفظة " الحق " في الآية .

وجاء ذكر لفظ الجلالة " الله " إعجازاً لهم لإلقاء المهابة في قلوب السحرة , ودلالة على أنّ ما وصفوه بالسحر هو معجزة من الله ؛ ليدلّ على أنّ الله سبحانه كان مع موسى (**u**) مؤيّداً وشاهداً على هذا اللقاء بينه وبين فرعون , وتصديقاً لقوله تعالى في سورة طه: " إنيّ معكما أسمع وأرى " (طه ٤٦) , ويقول البقاعي : " ولماّ كان في مقام تحقيرهم , دلّ على ذلك بتكرار الاسم الجامع الأعظم , ولما قال سبحانه إنّ موسى (**u**) أبان ما أبان من

بطلان السحر كونه فساداً فثبت ما أتى به لمخالفة له , أخبر تعالى تسلية للنبي (r) [١]".

وهي الغاية من ضرب الأمثال والقصص في القرآن الكريم كلّه .

وكون السحر إفساداً وتمويهاً ولا حقيقة له ذكر سبحانه " الحق " ليكون الرد على الكافرين من جنس العمل . فالباطل نظيره الحق وهو ما قام به موسى u بأمر من الله سبحانه بإبطال السحر[٢] ؛ ليأتي الإيمان القطعي من القلوب في قوله تعالى : " فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى " (طه٧٠) وهي نتيجة إثبات الحق من الله سبحانه ؛ فجاء التعبير غاية في البلاغة لفظا ومعنى .

وختمت الآية بقوله تعالى : " ولو كره المجرمون " دلالة على أنّ ما قاموا به من تكذيب لدعوة موسى u يعدّ إجراماً بحق أنفسهم , خاصة بعدما رأوا الآيات المعجزة , كما أنّ إنكارهم هذا لا يعتدّ به ولا قيمة له فكأنّه غير موجود .

وآخر أمثلة الجناس التي تناولتها الدراسة بين لفظتي " بوّأنا ومبوّأ " في قوله تعالى " وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُواْ حَتَّى جَاءهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ " (يونس٩٣)

فقد جانس سبحانه وتعالى بين بوأنا التي بمعنى أسكنّا , ومبوأ وهو المسكن أو المنزل وذلك في سياق الحديث عن النعم الكثيرة التي أنعمها الله تعالى على بني إسرائيل , والتي تقتضي الإيمان بوحدانية الله سبحانه وتعالى .

ولمّا ذكر أمر فرعون وقومه وأنهّم لم ينتفعوا من المعجزات والشدائد والامتحان , أتبع ذلك بخاتمة بني إسرائيل فيما حولهم من النعم المقتضي للعلم القطعي بأنّه لا اله غيره ,

---

١- البقاعي , نظم الدرر , ٣ /٤٧٢ .

٢- انظر , الألوسي , روح المعاني , ٤ / ١٥٧ .

وأنّ من خالفه كان على خطر الهلاك فجاء قوله تعالى : " مبوّأ صدق " أي أسكناهم في الأرض المقدسة . وعادة العرب إذا مدحت الشيء أضافته إلى الصدق , ولماّ كان المنزل لا يطيب إلا بالرزق كان التعبير عنه بالمبوّأ ؛ دلّ على الرزق بدلالة الالتزام حيث صرح به فقال : " ورزقناهم من الطيبات " [١] .

والصدق هو عكس الكذب ويدلّ على أهمية الأرض التي أسكنها الله لبني إسرائيل , وهي إحدى النعم التي أنعمها الله عليهم وقد جاءت أداة التحقيق " قد " تأكيداً على ذلك , ودلالة على أهمية هذا المكان وما يتميز به من ميزات كثيرة , يقول تعالى : " وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ " (الأعراف ١٣٧) .

وجاءت " حتى " في قوله : " فما اختلفوا حتى جاءهم العلم " دلالة على نهاية النعيم الذي كانوا به وسبب ذلك هو العلم . فالعلم كان سبباً في اختلاف بني إسرائيل وشقائهم . وبما أنّ الخلاف ينتج عنه فريقان جاءت خاتمة الآية بقوله: " إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون " للتأكيد على أنّ الله سيحكم بينهم . وجاء التعبير بالمضارع لاستمرار الاختلاف وعدم الإنفاق .

ويبدو أنّ الجناس في سورة يونس جاء ليؤكد نعم الله تعالى على المؤمنين ونصره لأنبيائه وتأييدهم على أعدائهم وتثبيتهم على الحق , ويدلّ ذلك على سعة رحمته سبحانه ولطفه بعباده , وطمأنة للرسول(r) وللمؤمنين بأنّ نصر الله آت لا محالة .

١- البقاعي , نظم الدرر , ٣ / ٤٨٠

المشاكلة اللفظية

والمشاكلة اللفظية تعني : " ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقاً وتقديراً [١] " . وتكمن بلاغة المشاكلة في جمال في العبارة وسمو في البلاغة ؛ لأنّ الناظر يتوهم أنّ المعنى الثاني هو نفسه المعنى الأول , ولكن إذا أدام النظر وحقق الفكر علم أنّه غيره فيستقر المعنى في ذهنه ويثبت [٢] .

وقد شاكل سبحانه في سورة يونس في موضعين أولهما لفظة " المكر" كما في قوله تعالى: " وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ " (يونس٢١) .

والمكر كيد خفيّ , لا يكون مع شخص يساويك , بل يكون بين اثنين يجهل أحدهما طبيعة الآخر[٣] . وبذلك يكون المكر في الأولى سيّئة , والثانية ليست سيئة بل مشاكلة لفظية, وردة فعل دفاعيّة للأولى جزاء فعلتهم واستهزائهم .

والآية في سياق الحديث عن مكر الكافرين , فبعدما أصابهم القحط رحمهم الله بنزول المطر فتكبّروا على الله ولم يؤمنوا , فعبّر سبحانه عن هذه الرحمة بالذوق فقال : " وإذا أذقنا الناس رحمة " على سبيل الاستعارة , وقد نسب المشركون هذه القدرة في الإغاثة إلى أسباب مادية , ولم ينظروا إلى قيمة الإيمان بالله ودوره في هذا الخير , وإنكارهم هذا يخدم الإيمان أصلاً ؛ لأنّ إنكار الإيمان يقلل من قيمة الرّأي المادي [٤].

١– القزويني , تلخيص المفتاح في المعاني والبيان والبديع , ١٧٨ .
٢– انظر , لاشين , عبد الفتاح , البديع في ضوء أساليب القران , ٧٨
٣- انظر , الشعراوي , تفسير الشعراوي , ١٠ / ٥٨٤٠ .
٤– انظر , السابق , ١٠/ ٥٨٣٧ .

ومما يدل على هذه الحالة استخدام " إذا " الفجائية في قوله تعالى: " إذا لهم مكر في آياتنا " دلالة على مدى تفجعهم بهذه النعمة العظيمة بالنسبة لهم , ولكنّ الله عز وجل سبقهم هذه الفرحة وقطعها على نفسيّاتهم وفضح أمرهم , وكأنّه يقول لهم لا داعي للفرح فهذا بعض ما نعد به المتقين , فعليكم أن تؤمنوا حتى تستحقوا هذه النعمة .

وعلى الرغم ممّا في هذا الأسلوب من قدرة على مخاطبة العقل والوجدان معاً إلا أنهّم استمرّوا في عنادهم وكفرهم ؛ لذا جاءت إذا الفجائية لتكشف عن حقيقة المشركين . فهم بمجرد أن رحمهم الله تعالى بعد ضراء مستهم إذا بهم يعودون إلى ما كانوا عليه من تمرد وعصيان , وكان يجدر بهم الشكر على هذه النعمة . وبما أنّ حقيقتهم لا تخفى على الله سبحانه ؛ لذا جاء وصف فعلهم هذا بالمكر الذي قد ينجح بين البشر , ولكنه لن ينجح مع الله سبحانه وتعالى ؛ لأنّه يعلم ما في الأنفس ولا أحد يعلم ما في نفسه سبحانه . فلمّا نزل المطر بعد سني القحط التي أصابتهم رجعوا إلى كفرهم وعنادهم واستهزائهم , ونسبتهم نزول المطر لأسباب مادية فأرادوا المكر بالله سبحانه فأخبرهم تعالى أنّه أسرع مكراً منهم , ولديه ملائكة يكتبون أقوالهم وأفعالهم الخبيثة .

وجاء اسم التفضيل " أسرع " ردّاً على المشركين , ومبرزاً لهم قدرة الخالق سبحانه وتعالى , حتى لا يغتروا بقدرتهم على المكر , ويبشرهم بفشل خططهم قبل أن يقوموا بتنفيذها .

فتوجيه التّهم إلى أسباب مادية لا يلقي اللوم على الإيمان نفسه ؛ لأنّه غير موجود عندهم أصلاً , ومن ثم يكون هذا حجة أمام المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم وتثبيتاً لهم . كما أنّ الآية ضمناً تسفه عقول المشركين , فإذا كان ما يدبرونه من كيد لا يخفى على الملائكة " الكتبة " وهم إحدى مخلوقات الله , فهل سيخفى عليه سبحانه وتعالى ؟ ؛ لذا جاء

التوكيد بـــ " إنّ " ونسبة الرسل إلى الله بـــ " نا " الدالة على التعظيم ليذكّرهم بما غفلوا عـــن إدراكه .

وجاء الموضع الآخر للمشاكلة اللفظية في سورة يونس (**u**) في لفظة الريح كمـــــا في قوله تعالى : " هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِـــرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـــذِهِ لَنَكُونَنِّ مِنَ الشَّاكِرِينَ " (يونس ٢٢) .حيث يميّز سبحانه في هذه الآية بين نوعين من الريح واحدة طيبة والأخرى عاصفة , تتضمّن الغـــضب والدمار على سبيل المشاكلة اللفظية [١] .

والآية في سياق الحديث عن سوء عبودية الإنسان , فضرب سبحانه للنـــاس مـــثلاً يعرفونه بالتجربة , وهو أنهّم إذا ركبوا في الفلك وعصفت الريح وهاج البحر وأشرفوا علـــى الهلاك يدعون الله وحده لا يشركون به شيئاً مخلصين له الدين , وينسون من شـــدة الخطـــر والهلاك ما كان منهم من إشراك به من قبل ؛ دلالة على أنّ الكفر هو تكبّـــراً وعلـــوّاً مـــن أنفسهم [٢] .

لقد ذكّر سبحانه الإنسان في حالة الاطمئنان أثناء سيره في البحر وجريانه بأمان بين الأمواج , والحالة الثانية عندما اختلف عليه الهواء وقوته وتغيرت أجواء البحر وانتقلت مـــن الأمان إلى الخوف فبدأ القلق , فلا مهرب عندها من الموت . وفي هذه اللحظة تذكر الإنسان بأنّ له ربّاً واحداً لا شريك له يدعوه فيجيب يقول تعالى: " ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ " (غافر ٦٠) .

١– انظر , الدرويش , محيي الدين , إعراب القرآن وبيانه , ٣ / ٣٢١ .

٢– انظر , رضا , محمد رشيد , تفسير المنار , ١١ / ٤٩٥ .

وجاء وصف الرّيح في حالة الأمان بالطيبة , ومن عادة لفظة الــرّيح فــي القــرآن الكريم أن تأتي مفردة بمعنى العذاب والقوة كما في قوله تعالى: " فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّــسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ {٢٤} تُدَمِّرُ كُــلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ) (الأحقاف ٢٤-٢٥) . وعند الجمع (رياح) تأتي بمعنى الرحمة كما في قوله تعالى: " وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ " (الروم ٤٦) .

وفي هذه الآية عرّف سبحانه الريح بأنهّا طيبة , حيث تأتي الريح طيّبة عندما تكــون السفن بحاجة إليها للمسير بسرعة وتصل في الوقت المراد , كالسفن الشراعية مــثلاً فهــي تحتاج إلى هواء قوي ليحركها فخرجت لفظة ريح هنا بمعنى مختلف عما عرفت عنــه فــي باقي سور القرآن الكريم وآياته[١].

تلك هي حالة الراحة والأمان أمّا الحالة الأخرى هي صورة الغضب والعذاب عندما كانت الريح بمعناها الحقيقي وأتبعها سبحانه بلفظة " عاصف " حتى يميزها عن تلك الــرّيح الطيبة والتي من صفاتها ما

ذكره تعالى في قوله: " وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ " دلالة على القــوة العظيمة المدمرة التي جاء بها الموج بفعل الرّيح , وأيقن عندما أصحاب السفينة مــن عــدم وجود منفذ للفرار من الغرق والموت , فتوجهوا عندها إلى التّوبة والدعاء إلى الله .

ففي حالة النعيم والرّاحة لم يذكروا فضل الله ورحمته عليهم , أمّا عند وقوع المصيبة والغرق المحتّم ذكروا الله واستغفروه , ليصف سبحانه الإنسان في حالة النعيم وحالة الشدة .

١- انظر , الشعراوي , تفسير الشعراوي , ١٠ / ٥٩٩١ .

السجع

لقد كان موضوع السجع في القرآن الكريم موضوعاً خلافياً بين علماء اللغة والبلاغة, فأجازه البعض ومنعه آخرون بحجة كراهية الرسول (r) له . والرأي الراجح أن الرسول (r) لم يكن كارها للسجع مطلقاً , إنما كره نوعًا معين من السجع , وهو سجع الكهان ؛ لأنه يحوي معانٍ وأحكام مغلوطة من حيث المعنى [١].

وجعل ابن الأثير القول بعدم وجود السجع في القرآن الكريم عجز عند القارئ ؛ لأنه موجود في القرآن الكريم , وجاء بأدلة كثيرة على وجود السجع في القرآن [٢] .

وقد احتوت سورة يونس السجع في عدة مواضع منها كما في قوله تعالى : " وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ " (يونس ١٣)

وذلك في سياق الدعوة إلى وحدانية الله تعالى وإقامة الحجج من خلال ذكر قصص الأقوام السابقة ومجيء الرسل إليهم , وجاء ذلك بأسلوب السجع بين لفظة " ظلموا " ولفظة " ليؤمنوا " حيث ربط سبحانه الظلم بعدم الإيمان , وجاء نفي الإيمان مقترناً بلام الجحود دلالة على نفي الإيمان واليأس من وقوعه في قلوبهم واستجابتهم له .

ودلت لفظة " بالبينات " على إفراطهم بالظلم وهذا يعد إجراماً بحق أنفسهم , حيث جاءت الخاتمة تصفهم بالإجرام باستخدام الجملة الإسمية الدالة على الثبات والديمومة .

١- انظر , عباس , فضل , البلاغة فنونها وأفنانها , ٢ / ٣٠٧ و ٣٠٨ .

٢- انظر , ابن الأثير , المثل السائر , ١ / ٥١٤ .

وجاء السجع في موضع آخر من السورة بين الألفاظ (زيادة وذلّة والجنة) في قوله تعالى : " لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون " . (يونس ٢٦)

والحديث في سياق جزاء المؤمنين الذين أحسنوا في هذه الدنيا , والحسنى هي الجنة التي أعدها الله للمؤمنين , ولما كان الوجه هو الذي يحمل معاني الشرف والكرامة والهيبة لصاحبه ذكر سبحانه تحريم النار على وجوه المؤمنين , فقال تعالى : " ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة " فجاء النفي في موضعين ليؤكد رفع هذه الصفات عن المؤمنين .

كما أن الوجه تبرز عليه علامات العذاب والذل وبالمقابل تظهر علامات الفرح , فكأنه مرآة تعكس حقيقة ما في داخل الإنسان .

وقد جاءت لفظة زيادة منسجمة مع ذلة , وهي تعني رؤية وجه الله تعالى وهي نعمة عظيمة وشرف كبير للمؤمن , وجاء ربط ذلك كله مع لفظة الجنة , وهي مصير المؤمنين حيث انتشار الفضائل وانعدام الرذائل .

وجاء السجع في موضع آخر بين لفظتي (ظناً وشيئاً) في قوله تعالى : " وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُون " (يونس ٣٦)

وسياق الآية حول عبادة الأصنام التي استعبدت الخلق حيث ادّعى الكافرون لها أموراً اختصّ بها ربّ العزّة سبحانه وتفرد بها كالخلق والهداية مثلاً . وهذه الآية جاءت تنفي هذه الادعاءات لتفضحهم أمام البشر كلهم وأمام أنفسهم تحقيراً لهم وتبشيراً بالعذاب الذي ينتظرهم , فوصف ذلك بأنه ظن ليس إلا , حيث جاء تنكيرها تحقيراً لتفكيرهم الفاسد .

وجاءت لفظة " شيئاً " لتؤكد النفي القطعي لإبطال ما ذهب إليه الكافرون من ظن فاسد فجاءت اللفظتان مسجوعتان لتبطلا عبادة الأصنام والاعتقاد بضرها ونفعها , يقول أبو

السعود: " وما يتّبع أكثرهم في معتقداتهم ومحاوراتهم إلا ظناً واهياً من غير التفات إلى فـرد من أفراد العلم , فضلاً عن أن يسلكوا مسالك الأدلة الصحيحة الهادية إلى الحق المبنية علـى المقدمات اليقينية الحقة , فيفهموا مضمونها ويقفوا على صحتها وبطلان مـا يخالفهـا مـن أحكامهم الباطلة فيحصل التبكيت والإلزام[١] ".

١- أبو السعود، تفسير أبي السعود ، ١٤٤/٣.

الفصل الثالث

النّظم القرآني في معجم سورة يونس عليه السلام

يبحث هذا الفصل من الدراسة في البعد المعجمي لبعض ألفاظ اللغة العربية وتراكيبها التي وردت في سورة يونس عليه السلام , كان لها خصوصية في أداء المعاني دون غيرها من الكلمات , وذلك من خلال التناسق بين الألفاظ في سياق الآية , حيث إنّ للسياق دوراً كبيراً في إخراج الكلمة من معنى إلى آخر ؛ لدعم المعنى المراد من النص .

فالتناسق في تصوير القرآن الكريم , كالتناسق في تأليف العبارات وتخيّر الألفاظ ونظمها في نسق خاص يبلغ في الفصاحة أرقى درجاتها [١] . ومما لا شك فيه أن البعد المعجمي يؤدي دوراً كبيراً في النظم القرآني ؛ لأن ألفاظ القرآن الكريم وضعت وضعاً فنياً مقصوداً في مكانها المناسب , فالحذف من المفردة مقصود كما أن الذكر مقصود , وكل تغيير في المفردة أو إقرار على الأصل مقصود غرضه [٢] .

ومن هذه الألفاظ والتراكيب لم تُذكر إلاّ في موضعين أو ثلاثة من القرآن الكريم , ومنها ما اختصّت به سورة يونس دون غيرها من سور القرآن الكريم كاملاً , فكان يجدر الوقوف عند هذه الألفاظ والتراكيب وتناولها بالدراسة . وستتم دراستها بناء على التقسيم التالي :

١- انظر , قطب , سيد , التصوير الفني في القرآن الكريم , ٧٤ و ٧٥ .

٢- انظر , السامرائي , فاضل , بلاغة الكلمة في التعبير القرآني, ط١ , ٢٠٠٠, دار الشؤون للثقافة العامة, بغداد , ٦.

- **أوّلاً : النّظم القرآني في بعض الألفاظ .**

- **ثانياً : النّظم القرآني في بعض التراكيب .**

- **ثالثاً : النّظم القرآني في ألفاظ تكررت في السورة .**

أوّلاً : النظم القرآني في بعض الألفاظ

لفظتا (بغياً وعدواً)

لقد جاء في سورة يونس بعض الألفاظ التي سيقت لدلالات معينة أرادها ربّ العزّة سبحانه , حيث إنهّا استطاعت أن تكون لها الخصوصية في موقعها , حيث لو أبدلت بلفظة أخرى مرادفة لها لن يستقيم المعنى كما هو الحال في وجودها , وكأنهّا اختيرت اختياراً مقصوداً ، ووصفت وصفاً فنياً من قبله سبحانه وتعالى[١]، لتتناسب مع مضمون الجملة والهدف الذي سيقت من أجله ومن هذه الألفاظ لفظتي بغياً وعدواً في قوله تعالى: " وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ" (يونس ٩٠)

والبغي التّعدي , وبغى الرجل علينا بغْياً عدل عن الحق, والبغي الاستطالة على الناس وبغى علينا أي خرج علينا طالباً أذانا , والبغي الظلم والفساد ويقال فلان يبغي على الناس إذا ظلمهم وطلب أذاهم والفئة الباغية هي الظالمة الخارجة عن طاعة الإمام العادل, وأصل البغي مجاوزة الحدّ , وكلّ مجاوزة وإفراط على المقدار الذي هو حد الشيء بغي , والبغي أصله الحسد ثم سميّ الظلم بغياً ؛ لأنّ الحاسد يظلم المحسود جهده رغبة في زوال نعمة الله عنه[٢].

١- انظر ، السامرائي , فاضل , من أسرار البيان القرآني , دار الفكر , عمان , ط١ , ٢٠٠٩ , ٥ .

٢- انظر , ابن منظور , لسان العرب . وانظر , الزمخشري(٥٣٨) , جار الله محمود بن عمر الزمخشري , أساس البلاغة , تحقيق : مزيد نعيم وشوقي المعري , مكتبة لبنان, بيروت , ط١ , ١٩٩٨ , مادة بغي .

وأمّا العدو فهو تجاوز الحد في الظلم ولم تأت اللفظتان مجتمعة إلا في سورة يونس, وقد جاء نظم الكلمتين معاً باستخدام العطف نظماً فنياً يحمل دلالات تعكس لنا مدى ظلم فرعون لقوم موسى (**u**) فالبغي هو الظلم والعدو هو تجاوز الحدّ فيه . وهي لتأكيد البغي الذي قام به فرعون عندما أراد اللحاق بقوم موسى لمنعهم من السفر إجبارياً وهو بذلك متعدّ عليهم إذ ليس له حق بذلك ؛ لأنّ بني إسرائيل أرادوا مفارقة بلاده وليست مفارقة أحد بلده محظورة إن لم يكن لأحد حق عليه في البقاء . فإنّ لذي الوطن حق في الإقامة في وطنه ، فإذا أراد المغادرة فقد تخلى عن حقه , وهذا يكون بإرادته وليس رغماً عنه. أما فرعون فقد كان غرضه تسخير بني إسرائيل فأراد إكراههم على البقاء في بلاده[١].

وهكذا فإنّ بني إسرائيل تخلّوا عن البقاء في بلاد فرعون بإرادتهم وأرادوا الرحيل إلى بلاد أخرى أرادها لهم الله سبحانه بقوله: " وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ " (يونس: ٨٧) فكان لحاق فرعون لهم لإجبارهم على العودة في قمة الظلم والتعدي على حقوقهم ، فجاءت لفظة الظلم معطوفة على لفظة التعدي فأكّدتا أنّ هذا الفعل تعد على حق الآخرين .

لقد دلّ إيمان فرعون وتلفظه به على أنه كان على جهل بحقيقة الله سبحانه ولم يكن على علم به لعدم اهتمامه أصلاً لما جاء به موسى فاعتبره ساحراً كاذباً , فكان يسخر منه فقال تعالى على لسان فرعون : " وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ " (غافر ٣٦ – ٣٧)

١- انظر , ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٢٧٤/١١.

ودلّت فاصلة الآية السابقة لها على جهل فرعون , فنفت العلم والمعرفة عن فرعون وقومه في قوله تعالى " قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ " (يونس: ٨٩) إضافة إلى ذلك عدم تلفّظه بالذات الإلهية إلاّ عندما رأى المعجزة وأوشك على الانتهاء . فهو لا يعرف شيئاً عن الله سبحانه من هو وماذا يسمونه , ولكنّه أدرك صدقهم عندما تجاوزا البحر وهو ينظر إليهم بينما أغلق البحر عليه وعلى قومه ؛ فعرف صدق موسى في تلك اللحظة فآمن وأسلم نفسه لله في آخر لحظة من حياته.

ويدلّ على ذلك استخدام " حتى" الدالة على انتهاء الغاية الزمانية في قوله تعالى "حتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ ". إضافة إلى افتتاحية الآية التي بعدها حيث افتتحت بلفظة " آلآن " وهي استفهام إنكاري , ينكر قبول الإيمان في تلك اللحظة الأخيرة من الحياة وما تحمله هذه اللفظة من معاني الخسران والضياع توبيخاً لفرعون وقومه .

والإيمان بعد وقوع العذاب لا يفيد خاصة في آخر لحظة , فالتوبة في هذه الفترة لا تنفع صاحبها يقول الرسول (**r**) : " إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر [١] " .

١- ابن حنبل , أحمد , مسند أحمد بن حنبل , ٣ / ٤٢٥ .

لفظة (رجس)

وتعني الخبث والقذارة , وجاءت في أكثر من موضع في القرآن الكريم تحمل المعنى نفسه ومنها قوله تعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ " (المائدة ٩٠) ويقول تعالى : " قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ " (الأنعام ١٤٥) , ويقول تعالى : " ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ " (الحج ٣٠) , فجاءت اللفظة تصف المحرمات المستقذرة من ميتة ودم وخمر وشرك وغيرها مما استُقبح أمره .

وفي سورة يونس جاءت هذه اللفظة في سياق الحديث عن هداية الناس بأنها أمر من عند الله , وليس بإرادة البشر يقول تعالى: " وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ " (يونس ١٠٠) .

فميّز سبحانه وتعالى في هذه الآية بين حال المؤمن والكافر فالإيمان حالة من يعقلون والرجس حالة غير العاقل وهو خبث نفسي يدلّ على كل ما استقذر من العمل المؤدي إلى عذاب الله تعالى[١].

ونسب سبحانه وتعالى الرجس إلى الشخص الذي لا يعقل في قوله : " ويجعل الرجس على اللذين لا يعقلون " وكون الرجس قذر وقباحة , ميّز سبحانه من خلاله بين الإنسان

١- انظر , الكفوي (ت ١٠٩٤), أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني , الكليات معجم في مصطلحات الفروق اللغوية , ١٩٩٨ , تحقيق : عدنان درويش ومحمد المصري , مؤسسة الرسالة, بيروت , ٧٣٢ .

العاقل وغير العاقل , فالعقل هو ميزان الإنسان وبه يستحسن ويستقبح فإذا حدث له عيب في عقله اختلف اختلافاً كلّياً . فشارب الخمر مثلاً يعمل الخمر على ستر عقله فلا يميز بين الأشخاص , وأيضاً لا يميّز الخبيث من الطيب فتحركه شهوته حيث شاءت .

لقد خصّت هذه الآية الحديث عن الأشخاص الذين خالفوا قواعد العقل والمنطق من أقوامهم بالإيمان بالله وحده , فعاندوا وتكبروا على الله جهلاً من أنفسهم رغم وجود أسباب الهداية والبراهين والدلائل الدالة عليها , دلّ على ذلك التعبير بالأفعال المضارعة ؛ لأنّ مسألة الإيمان بالله مسألة مستمرة مدى الحياة . فهؤلاء الكافرون خصهم الله تعالى بعذاب خاص فجاءت لفظة الرجس متضمنة هذا المعنى ؛ لأن العقل هو الذي يصل بالإنسان إلى وجود الله ومعرفة المنهج السوي والدين الحق والانتماء إليه.

لفظة (غمّة)

وجاءت هذه اللفظة في سياق اليأس الذي أصاب نوح (**u**) من دعوة قومه فقال تعالى " وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللّهِ فَعَلَى اللّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ " (يونس ٧١) .

والغمّة الستر والغطاء وعدم المعرفة نقول : إنّه لفي غمة من أمره أي لبس وفي التنزيل العزيز: " ثم لا يكن أمركم عليكم غمة " قال أبو عبيد مجازها ظلمة وضيق وهم .

والغمّة ما غطّى على القلب من كرب أو مرض , وسمّي الغيم الأبيض بهذا الاسم ؛ لأنّه يغمّ السماء أي يسترها [١].

فالغمّة هي الأمر المستور المخفي الذي لا يعرف عنه شيء , وقد اختصت بها سورة يونس دون غيرها من سور القرآن الكريم , وجاءت الآية في سياق تأنيس الرسول محمد (**r**) وعدم الانكسار بفعل ما يواجهه من ظلم المشركين , وقد دلّت الآية على حالة اليأس التي أصابت نوح (**u**) بعد دعوة قومه , الذين لم تنفع معهم الآيات والنذر فحفّزهم على الاجتماع على رأي واحد سواء من الأصنام التي عبدوها أو من أقرانهم في الكفر وأن يصمموا على ما اتّفقوا عليه , إظهاراً لقلة المبالاة بهم فلن يعارضهم على شيء يفعلونه بعد الآن[٢].

وأفادت " ثمّ " التراخي في الرتبة لما يتضمنه قوله : " ثم لا يكن أمركم عليكم غمة " من الترقي في قلّة مبالاته بما يهيئونه له من الغدر حيث يتصدى لهم تصدي المشير بما يسهّل لهم البلوغ إلى الإضرار به, وإزالة العوائق الحائلة دون مقصدهم . وقد جاء بما ظاهرة النهي في قوله تعالى " لا يكن أمركم عليكم غمة " فنهاهم أن يكون أمرهم مستوراً ومخفياً بل أراده مكشوفاً , وذلك مبالغة في نهيهم عن التردد في بيان الوصول إلى قصدهم[٣].

ويعدّ موقف نوح (**u**) والحالة التي مرّ بها دافعاً للرسول (**r**) للاستمرار في الدعوة وعدم الانكسار. ويبدو أنّ هذا هو الهدف من ذكر قصص الرسل عليهم السلام في القرآن

١- انظر: ابن منظور، لسان العرب . وانظر , ابن دريد (ت ٣٢١) , أبو بكر محمد بن الحسن ,جمهرة اللغة,ط١, ١٩٨٧, تحقيق:رمزي منير,دار العلم للملايين , مادة غم.

٢- انظر: الشعراوي، تفسير الشعراوي، ٦٠٩٩/١٠.

٣- انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٢٣٩/١١.

الكريم كاملاً , حيث يدلّ قوله تعالى " وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ " (غافر ٧٨) على أن القرآن الكريم اقتصر على قصص الرسل التي تخدم الدعوة وتساعد في إنجاحها وترك الأخرى , فكل موضوع من موضوعات القرآن الكريم جاء لهدف أراده رب العزة سبحانه .

ثانياً : النّظم القرآني في بعض التّراكيب

تركيب (ننجيك ببدنك)

جاء في سورة يونس (**u**) بعض التراكيب كان لها دلالات معينة كان لها خصوصّية في القرآن فبعضها اختصت به سورة يونس دون غيرها من سور القرآن الكريم وقد تناولتها في الدراسة . ومن هذه التراكيب " ننجيك ببدنك " في قوله تعالى : " فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ " (يونس ٩٢)

والإنجاء هو الخلاص من الشيء , والبدن تعني الجسد بلا روح[١]، والآية في سياق الحديث عن فرعون بعدما غرق في البحر أثناء لحاقه بموسى (**u**) وقومه . والإنجاء من الاستعارة التهكمية وليست للتهكم المحض حيث علاقتها المشابهة ؛ لأنّ الخروج إلى البر يشبه الإنجاء ولكنه ضد الإنجاء لأنّه عند الخروج كان جسداً بغير روح[٢] , فجاءت الكلمة متصلة بكلمة بدنك التابعة لها حيث البدن تعني الجسد بدون روح فلم يكن الإنجاء لجسد حي ولكنّه للميت , وهذا أسلوب بلاغي يغاير ما هو متعارف عليه من المعنى الذي تفيده هذه اللفظة في السياقات السابقة لهذه الآية .

وتجدر الإشارة إلى أنّ لفظة " بدنك " الدالة على الجسد لم تستخدم إلاّ في سورة يونس دون سور القرآن الكريم كاملة , فاختصت بها سورة يونس في قصة موسى مع فرعون, حيث إنّ قصة فرعون من حيث حياته وموته من أغرب القصص التي حدثت في تاريخ البشرية وتضمنها القرآن الكريم فتعهد الله سبحانه أن يكون فرعون عبرة في التاريخ

١- انظر , ابن منظور، لسان العرب، مادة نجي.

٢- انظر , ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٢٧٨/١١.

لتماديه على الله وادعائه الربوبية , فلا زال جسداً بلا روح حتى يومنا هذا . وربمّا دلت على هذا المعنى اقتران لفظة الإنجاء الخاصة بالأحياء مع البدن الخاصة بالجسد دون الروح.

لقد شاء الله تعالى أن يلفظ البحر جثمان فرعون كما يلفظ جيفه أيّ حيوان غارق , ليعلم الناس أنّه مجرد بشر ليس إلاّ , وإن ادعى الربوبية من دون الله وتجبّر، فاتّضح فيما بعد أنّه عبد ضعيف وليس بربّ[1]، وقوله تعالى: " لتكون لمن خلفك آية " حتى يعتبر كل من يتجرأ على الله بأنّ يتجبر ليدرك كل شخص غافل عن آيات الله , أنّ هذا مصير كل إنسان يتمادى على الله ويكفر به , فأكّد سبحانه ذلك بالمؤكدات المتتالية : (إن واللام واسمية الجملة) في قوله: " وإنّ كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون " حيث جاء الخطاب متضمناً التهديد الموجه للناس كافة , أي إنّ كل شخص معنيّ بهذا الكلام وأنّ الإسلام ليس لأمّة واحدة بل هو عام لجميع الأمم والشعوب على وجه الأرض .

تركيب (أسروا الندامة)

وتركيب آخر تضمنته السورة وهو " أسرّوا الندامة " في قوله تعالى : " وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لاَفْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ " (يونس: ٥٤) .

والآية في سياق الحديث عن الكافرين ومصيرهم ووصف حالهم يوم القيامة فجاءت الآية تحمل صورة واضحة مليئة بالخوف والرعب والتهويل من حال الكافرين , فلو أنّ لهم

١- انظر , الشعراوي، تفسير الشعراوي، ٦١٨٥/١٠.

كل ما في الأرض من كنوز وغيرها حيث " في " تفيد الظرفية المكانية , لفدت نفسها به وذلك لهول الموقف يومئذٍ .

وعبّر سبحانه عن الإسرار بالمستقبل بلفظ الماضي , دلالة على تحقيق وقوعه وكأنّه مضى , والندامة أسف يحصل في النفس على تفويت شيء يمكن عمله في الماضي , والندم من هواجس النفس فهو أمر غير ظاهر ولكنه كثير يصدر عن صاحبه قول أو فعل يدلّ عليه, فإذا تجلد صاحب الندم فلم يظهر قولاً أو فعلاً فقد أسر الندامة فقصرها على سرّه فلم تظهر بإظهار بعض آثارها وإنمّا يكون ذلك من شدة الهول , فهؤلاء أسروا الندامة لأنهّم دهشوا لرؤية ما لم يكونوا يحتسبون فلم يطيقوا صراخاً ولا عويلاً[١].

وقد كتم كلّ منهم همه في قلبه ؛ لأنّه ساعة يرى العذاب ينبهر ويصعق ويبهت من هول العذاب فتجمد دماؤه ولا يستطيع حتى أن يصرخ ؛ لأنّ هول الموقف يكبت ألمه في نفسه ويخرس لسانه ولا يستطيع أن ينطق فيعجز عن التعبير الحركي من الصراخ والألم, حيث إنّ التعبير الحركي لون من التنفس البدني وحيث لا يستطيعه الإنسان فهو يتألم أكثر[٢].

وقد ختم سبحانه الآية بالقضاء بالعدل فكل هذه الآلام والعذاب هو من فعلهم , فالله سبحانه لا يظلمهم بل هم الذين ظلموا أنفسهم . وهكذا بدت الصورة في الوصف الواضح المعبّر بدقّة شديدة ليستيقن الكافر هذه الصورة ويدركها ويرتدع ويعود إلى الإيمان الله ويتبع طريق الحق والهدى .

وتجدر الإشارة إلى أنّ هذا التركيب جاء في موضع آخر من القرآن الكريم في السياق نفسه حيث يصف موقف العتاب بين فريقين من الكافرين , فريق الضعفاء وفريق

١- انظر , الشعراوي , تفسير الشعراوي , ١١ / ١٩٨ .

٢- انظر , السابق , ١٠ / ٥٩٩١ .

الأقوياء حيث النّدم والإهانة في قوله تعالى : " وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلاَلَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ"(سبأ ٣٣)

ثالثاً : النّظم القرآني في ألفاظ تكررت

لفظة (تبوّأ)

تكرّرت بعض الألفاظ في سورة يونس في أكثر من موضع وهذه الألفاظ تحمل دلالات ومعان تتضمن مقصود السورة , منها على سبيل الذكر لا الحصر لفظة (تبوأ) في قوله تعالى: " وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ " (يونس: ٨٧) وفي موضع آخر يقول تعالى: " وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُواْ حَتَّى جَاءهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ " (يونس: ٩٣) .

لقد جاءت لفظة " تبوّأ " في موضعين من السورة في سياق النعم التي أنعمها الله سبحانه على بني إسرائيل . ولفظة " تبوّأ " في المعجم من مادة بَوَأ وتتضمن ثلاثة معان : أولها الاعتراف بالشيء يقول تعالى " إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك " أي أعترف به , وباء بدمه أي أقرّ به على نفسه واحتمله . وثانيها الاستحقاق يقول تعالى: " وباؤوا بغضب من الله " أي بإثم استحقوا به النار . وآخر هذه المعاني هو المنزل وهو الذي يتفق ومضمون الآية التي نحن بصددها نقول بوأهم منزلاً إذا نزل بهم إلى ستر جبل، وأبأت بالمكان أقمت به , وبوّأتك بيتاً اتخّذت لك بيتاً وقوله عز وجل " أن تبوّءا لقومكما بمصر بيوتاً " أي اتخذا , ويقال بوأه الله منزلاً أي أسكنه إياه [١].

وهكذا نجد أنّ لفظة تبوّأ تدل على المنزل في سياق هذه الآيات . ففي الأولى توعد الله بني إسرائيل بمنازل في مصر تكون هذه المنازل عبارة عن مساجد يصلون فيها ؛ لأنّ فرعون وقومه كانوا يعذبونهم ويمنعونهم من الصلاة في أي مكان , فكانت هذه المنازل

١- انظر: ابن منظور، لسان العرب . وانظر , الزمخشري , أساس البلاغة , مادة بوأ.

عبارة عن معابد سرية يعبدون الله تعالى فيها[١]، وكم هي شبيبة بقصة أهل مكة مع الرسول(r) وأصحابه في بداية الدعوة إلى الإسلام في مكّة فكأنّه سبحانه يطمئن النبي (r) وقومه ويدعوهم إلى الصبر أسوة واقتداء بموسى (u) وقومه , وقد دلّ على ذلك أنّ سورة يونس من السور المكية التي تمتاز باحتوائها على قصص الأنبياء والأمم الغابرة والحديث عن العقيدة والأخلاق، وإثبات البعث والجزاء والجنة والنار وتصرفات المشركين في عقائدهم وسلوكهم[٢]، وذلك لتناسب مع البعد المكاني للسورة وهي مكة المكرمة فكان الناس بحاجة إلى هذا الأسلوب الذي امتاز باللطف ومخاطبة العقل والوجدان في الدعوة إلى الله والإيمان بوحدانيته ونبذ الشرك والعقائد الفاسدة .

وفي الموضع الآخر جاءت اللفظة في سياق الحديث عن نعم الله على بني إسرائيل بعد أنّ أجلاهم فرعون من مصر خائفين منه , حيث أغرقه سبحانه في البر فاختار لهم ربنا سبحانه من المساكن أحسنها وهي مصر وبلاد المقدس . وكلمة " المبوّأ " تعني البيوت والمساكن أو الوطن , وهناك فرق بين تبوء البيوت وتبوء المواطن .

فالبيت سكن خاص للأسرة أما الوطن فهو عام للأمة كاملة , وفي الآية الأولى وجه سبحانه الخطاب إلى موسى وهارون بقوله: " أن تبوّءا لقومكما بمصر بيوتاً " وهو البيت الخاص , وهي عبارة عن بيوت خاصة للأسر أمّا التبوء العام فهو يحتاج إلى قدرة الله تعالى[٣] . وهو الذي جاء في الآية الثانية في قوله تعالى: " ولقد بوأنا بني إسرائيل " فنسب سبحانه الفعل لنفسه دلالة على الوطن بشكل عام .

١- انظر, أبو حيان، تفسير البحر المحيط، ١٨٤/٥.
٢- انظر, شقيرات، أحمد، وجوه الإعجاز في القرآن الكريم , ١١.
٣- انظر, الشعراوي، تفسير الشعراوي، ٦١٩٠/١٠.

والاختلاف في العلم هو حول الرسول (r) فقد اعتقدوا أنّ هذا النبي سيكون من ولد يعقوب وعندما جاء محمد (r) من ولد إسماعيل أي عربي وليس يهودياً , والعرب أعداؤهم أصلاً , كان الخلاف فمنهم من آمن ومنهم من كفر . فهم جميعاً مؤمنون بقدوم النبي (r) , ولكنهم اختلفوا في سلالته ونسبه [١]. وهذا قمّة الجهل عندهم حيث إن النبوة اختيار من ربّ العالمين وليس من البشر .

وقد أكّد سبحانه هذا الخلاف فيما بينهم مسبقاً في السورة فقد جاء الحديث حول الخلاف بعدما ضرب الله سبحانه وتعالى مثلين : مثل السوء وهم الذين كذبوا الرسل , ومثل الصلاح وهم الذين صدقوا الرسول واتبعوه وكيف كانت لهم الحسنى ؛ ليظهر الفرق بين مصير فريقين جاءهم رسول , ففريق آمن به وفريق كفر [٢] ، وذلك كلّه ترغيب للمشركين بالإيمان , وبشارة للمؤمنين من أهل مكة للثبات على الحق .

١- انظر, أبو حيان، البحر المحيط، ١٩٠/٥.

٢- انظر, ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٢٨٢/١١.

لفظة (سحر)

ومن الألفاظ التي تكررت في سورة يونس لفظة " سحر " حيث جاءت في ستة مواضع من السورة ؛ لتعكس حالة المشركين النفسية من الدعوة ورفضهم إياها بإسنادها إلى عالم الغيبيات الذي يكمن داخلها الضعف أمام هذا القرآن وادعاءاتهم وشبهاتهم حوله . وأوّلها كما في قوله تعالى: " أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَـذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ"(يونس٢) ويقول تعالى: " فَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ إِنَّ هَـذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ {٧٦} قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءكُمْ أَسِحْرٌ هَـذَا وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ " (يونس: ٧٦-٧٧) ويقول تعالى: " وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ {٧٩} فَلَمَّا جَاء السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُواْ مَا أَنتُم مُّلْقُونَ " (يونس: ٧٩-٨٠) .

ولفظة السحر في المعجم تعني كلّ ما لطف مأخذه وقد سَحَرَه بسحره سحراً والساحر العالم وسحره أيضاً بمعنى خدعه [١]، وفي اللسان السحر عمل تقرّب فيه للشيطان وبمعونة منه والسحر الأخذة التي تأخذ العين حتى يظن أنّ الأمر كما يرى وليس الأصل على ما يرى وأصل السحر صرف الشيء عن حقيقته إلى غيره , فكأن الساحر لمآ أري الباطل في صورة الحق مثل الشيء على غير حقيقته قد سحر الشيء عن وجهه أي صرفه [٢].

وهكذا يبدو أنّ السحر لم يطلق إلا على شيء باطل زائف لا حقيقة له وهو غش ومن عمل الشيطان , وهو شيء يفوق قدرة البشر بإسناده إلى الغيب وهو الشيطان . وقد

١- انظر, الجوهري (ت ٣٩٣), إسماعيل بن حماد , الصحاح وتاج العرب وصحاح العربية, ط٢ , ١٩٧٩ , تحقيق : أحمد عبد الغفور , دار العلم للملايين , بيروت, مادة سحر.

٢- انظر, ابن منظور، لسان العرب، مادة سحر.

بيّنت الآية الأولى الاتهام الموجه لسيدنا محمد (r) بمؤكدين على ذلك بقولهم " لساحر مبين " فقد جاء التأكيد باللام إضافة إلى الإبانة دلالة على شدّة إنكارهم لرسالة محمد (r).

وقد ذكر سبحانه فيما بعد اتهام قوم فرعون لموسى بالسحر فأراد سبحانه أن يطمئن سيدنا محمد (r), ويحثّه على الصبر حتى يفتح الله عليه ؛ لأنّه ليس أول من اتّهم بهذه التهمة , فلقد لقي موسى ما لقي من مثل هذه التّهم , إضافة إلى ذلك جاء التفصيل في قصة موسى(u) بشكل كامل حول موضوع الاتهام بالسحر طمأنة لسيدنا محمد (r) .

وقد فسّر ابن عاشور لفظة السحر عند نسبتها لموسى بقوله : " واعتذارهم عن ظهور الآيات بأنها سحر هو اعتذار المغلوب العديم الحجة الذي قهرته الحجة وبهره سلطان الحق , فلم يبق له منتشب من المعارضة المقبولة فهو يهرع إلى انتحال معارضات بمعاذير لا تدخل تحت التمحيص ولا تثبت في محك النقد – ولا بد للمغلوب من بارد العذر – وإذ قد اشتهر بين الدهماء من ذوي الأوهام إن السحر يظهر الشيء في صورة ضده ادعى هؤلاء أن ما ظهر من دلائل صدق موسى هو سحر ظهر به الباطل في صورة الحق بتخيل السحر[١] " .

وكأنّ المشركين يدارون أنفسهم ويواسونها حتى تستمر في المعارضة له (u) للحفاظ على كيانهم فمن الصعب عليهم تقبل أن يكون هذا الرجل المستعبد لفرعون سيّداً عليهم، دلّ على ذلك استخدامهم المؤكدات (إنّ واللام) والجملة الإسمية في قوله تعالى: " إنّ هذا لساحر مبين " إضافة إلى الإبانة وهي شبيهة بالتهمة التي وجهت لسيدنا محمد (r) في فاتحة السورة وكأنّ حالهم عليهما السلام واحدة .

١- ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٢٤٩/١١.

ولم يكن موسى أقلّ منهم قوة , كيف وقد خاطب قومه قائلاً : " إنّ معي ربي سيهدين " (الشعراء ٦٢) فجاء الرد على هؤلاء المشركين وتهمهم بالاستفهام الإنكاري في قوله تعالى على لسان موسى : " أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون " باستخدام الهمزة في موضعين وهي أبلغ أدوات الاستفهام[١] ؛ حتى ينكر عليهم هذا الاتهام الذي الموجه إليه ويوبخهم به . وذلك ليتناسب مع أسلوبهم في اتهامهم له باستخدام أداتي توكيد السحر , فجاء الرد على نفس التهمة بأداتي الإنكار فلا تكون الغلبة لهم عليه قولاً ولا فعلاً .

وقد زاد إنكاره عليهم ما جاء في خاتمة الآية بقوله تعالى: " ولا يفلح الساحرون " حيث تحوي دلالة على صدق موسى (**u**) إذ لو كان ساحراً ما شنّع حال الساحرين , حيث إن صاحب الصناعة لا يحقر صناعته ولا يقلل من شأنها بل يروّج لها ويفتخر بها وإذا حقرها علم ما فيها من عدم الفائدة[٢]، وهكذا تظهر الغلبة لموسى في هذا النقاش الذي دار بينه وبين قوم فرعون .

وعندما جاء التحدي بين موسى والسحرة حتى يثبت كل طرف صدق ما جاء به , عندها كانت الغلبة لموسى يقول تعالى : " وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى " (طه ٦٩) ومع ذلك قابلوا ذلك كله بالكفر فآمن بعضهم وكفر بعض . فآمن السحرة لأنهم علموا حقيقة ما جاء به موسى فميزوا السحر الباطل من الإعجاز الإلهي الحق يقول تعالى: " فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى " (طه: ٧٠) ويقول تعالى في قصة القوم عندما رأوا هذه الآيات المعجزة وهم

١- انظر , الجرجاني , دلائل الإعجاز , ١١١ .

٢- انظر, ابن عاشور , التحرير والتنوير ، ٢٥٠/١١.

الذين كفروا بها فلم يؤمنوا وأصروا على ذلك الكفر والجحود " فَلَمَّا جَاءتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ {١٣} وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِين " (النمل: ١٣-١٤) .

ويدلّ ذلك على أنهّم أدركوا صحة ما جاء به موسى (**u**) وعلموا مصدّاقيته وتيقنوا من ذلك, ولكن بني إسرائيل رفضوا الإيمان تكبراً على الله ورسوله فعندما رأوا المعجزة التي تفوق الخيال وهي من غير عادة البشر كما أدرك ذلك السحرة وهي ليست من عادة موسى (**u**) مثل هذه الاعمال وحرصاً على أنفسهم من الإنقياد وراء عقولهم التي أيقنت مصداقيته شرعوا بالسخرية يقول ابن عاشور: " ولما رأوا المعجزات التي هي حق ثابت وليست تخيلات وتمويهات , وعلموا أنّ موسى (**u**) صادق فيما ادّعاه تدرجوا من مجرد الإباء المنبعث عن الاستكبار إلى البهتان المنبعث عن الشعور بالمغلوبيّة[١] " .

فقد رفضوا الإيمان مع كل هذه الحقائق والبراهين تكبّراً من أنفسهم, فحالهم كحال قريش وأسيادها عندما رفضوا الإيمان حرصاً على كيانهم وسمعتهم بين أقوامهم , فجاءت خاتمة السورة مطمئنة للرسول (**r**) ومتفقة مع كل موضوعات السورة في قوله تعالى: " قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ " (يونس ١٠٨) .

١- ابن عاشور , التحرير والتنوير ، ٢٤٨/١١.

لفظة (الضّلال)

تكرّرت لفظة الضلال أربع مرات في سورة يونس , لتصف حالة الجهل التي يعيشها المشركون وهم بعيدون عن عبادة الله الواحد , ومتمسّكون بعبادة الأصنام التي لا تضر ولا تنفع وهذه المواضع في قوله تعالى: " هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ {٣٠} قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ {٣١} فَذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ " (يونس: ٣٠-٣٢) ويقول تعالى في موضع آخر : " وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ " (يونس ٨٨) . وفي موضع آخر يقول تعالى: " قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ " (يونس ١٠٨) .

والضلال ضدّ الهدى والرشاد فأقول : أضللت فلان إذا وجهته للضّلال من الطريق , وأضللت الشيء إذا غيبّته وأضللت الميت دفنته , وضلّ الماء في اللبن واللبن في الماء إذا خفي فيه وغاب , وضللت المسجد والدار إذا لم تعرف موضعهما, وضللت الدار والمسجد الطريق وكل شيء معين ثابت لا تهتدي له[١].

وهكذا بدا أنّ لفظة الضلال بمعنى عدم الهداية عن الطريق السليم حيث جاءت موجهة إلى كلّ من خالف الرسالات السماوية، ورفض الإيمان بالله تعالى واتباع أوامره

١- انظر, ابن منظور، لسان العرب . وانظر , الزمخشري , أساس البلاغة , مادة ضلل.

واجتناب نواهيه فوصفه سبحانه بالضلال وهو عدم معرفة الحق والجهل به . وهذا هو حال كل رافض للدين حيث إنّ سورة يونس تميزت في كونها تخاطب العقل البشري في إثبات الوحدانية لله , إضافة إلى ما جاءت به من قصص الأنبياء والأقوام السالفة وعقاب كلّ من كفر وثواب كلّ من آمن بهذه الرسالات , حيث إنهّا رسالات تدعو إلى شيء واحد هو الوحدانية لله , وإن اختلفت طرق العبادة يقول تعالى: " لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا " (المائدة: ٤٨) .

وقد خاطب سبحانه وتعالى العقل البشري بعد أن ذكر علامات الربوبية ودلالتها من رزق وخلق ونعم أنعمها الله تعالى على الناس , حيث أشار بقوله : " ذلكم " إلى ما ذكره قبلاً من رزق وملكية السمع والبصر، وإخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي وتدبير الأمور . كلها صادرة من إله واحد, فأشار إلى تلك النعم بلفظ واحد , فهو رب واحد لا شريك له , فإذا وجهتم الأمر بالربوبية إلى غيره تكونوا قد ضللتم الطريق[١].

وقد جاء الاستفهام يبيّن حقيقة واحدة , هي اتباع الحق وهي طريق الايمان بالله وحده لا شريك له , وأمّا غيره فهو ضلال باطل مهما تعددت العبادات من بشر كفرعون أو حجارة أو شجر أو غيرها . فالمعنى لا يكون إثر انتفاء الحق إلا الضلال إذ لا واسطة بينهم, فلما كان الله هو الرب الحق تيقن أن غيره ممن نسبت إليه الألوهية باطل فعبر عن الباطل بالضلال ؛ لأنّ الضلال أشنع أنواع الباطل[٢].

وفي الموضع الثاني جاء الدعاء من موسى بضلال قوم فرعون حرصاً من موسى(**u**) على ضلال بني إسرائيل من المحاولات الكبيرة التي قام بها فرعون للقضاء

١- انظر, الشعراوي، تفسير الشعراوي، ٥٩١٤/١٠.

٢- انظر, ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١٥٩/١١.

على موسى والذين اتبعوه , فقوم فرعون ضلّوا أنفسهم وأضلّوا غيرهم ؛ فجاءت اللام في قوله تعالى: " ليضلوا " للعاقبة " وهي أن تعطي إنسانا نعمة تكفيه فلا يحسن التصرف بها[١] " فربّنا سبحانه أعطى فرعون المال والجاه والسلطان لكنه لم يحسن التصرف بشيء منها فلم يكتف أنه ضلّ عن الحق بل قام بإضلال غيره فكان دعاء موسى رحمة لبني إسرائيل حتى يوقف فرعون عن إهلاك الناس وظلمهم فيخلّصهم منه .

وفي الموضع الثالث كانت خاتمة السورة بلفظة الضلال , حيث ختمت بأمر يقيني بأنّ الله سبحانه يبيّن للناس الأمور ويوضّحها , فخاطب الإنسان وحده بمنطق , بأنّ هذه هي الطريق إما أن تختار الهداية وإمّا الضلال , فلا يكون لأحد حجة أمام الله يوم القيامة بعد بيان مصير كلّ من الطريقين , فكلّها عائدة على الإنسان نفسه يقول تعالى: " قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ " (يونس: ١٠٨) .

١- انظر, الشعراوي، تفسير الشعراوي، ٦١٦٧/١١.

لفظة (الافتراء)

لقد ذكرت لفظة الافتراء في سورة يونس في ثلاثة مواضع . وهذه المواضع هي في قوله تعالى: " فمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ " . (يونس ١٧) وقوله تعالى: " قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ " (يونس: ٦٩) وفي موضع آخر يقول تعالى: " يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ " (يونس: ٣٨) ويقول تعالى: " قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلاَلاً قُلْ آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ {٥٩} وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ "(يونس ٥٩-٦٠)

ولفظة الافتراء من مادة فرا وافتراه اختلقه , والفِرية من الكذب وافترى الكذب يفتريه اختلقه ، وفلان أفرى فريّ إذا جاء بالعجب , والفريّ الأمر العظيم وفي التنزيل العزيز في قصة مريم " لقد جئت شيئاً فرياً " قال الفرّاء : الفري الأمر العظيم أي جئت شيئاً عظيماً وقيل جئت فرياً أي مصنوعاً ومختلقاً[١].

ويتّضح من ذلك أن الافتراء هو ادّعاء الكذب , وقد جاء الحديث في الموضع الأول في الآيتين في سياق الرّد على من يدعي الكذب على الله سبحانه , وقد تضمّن غالباً أسلوب الحوار مع المشركين لإقناعهم بالطريقة التي يفهمونها كما هو ظاهر في سياق الآية , وهو ارتقاء بالمجادلة منه (**r**) فاختار الأسلوب الذي يهذّب ولا يهيّج الخصم فيعاند, وهذا يعدّ من الحكمة في الإقناع فلا يقول للخصم ما يسبب توتره وعناده فيستمر الجدل بلا طائل[٢]،

١- انظر, ابن منظور، لسان العرب . وانظر , الزمخشري , أساس البلاغة , مادة (فرا).
٢- انظر, الشعراوي، تفسير الشعراوي، ٥٨١٣/١٠.

فاستخدم العقل والمنطق في شدّهم إليه حتى يؤمنوا بوحدانية الله ونبذ فكرة أنّ له ولداً شريكاً.

وفي الموضع الثاني لهذه اللفظة , جاءت في سياق الحديث عن اتهام المشركين للرسول (r) بالكذب والادعاء بتأليف القرآن الكريم , حيث جاء الرّد في اللآية نفسها بتحديهم أن يأتوا بمثل سورة من سور القرآن يقتنع الناس بها , ولكن هيهات .

فالنّاظر في الشعر الجاهلي ونظمه يدرك مدى إعجاز القرآن الكريم للمشركين , إذ هم أهل الفصاحة والبلاغة من حيث تركيزهم على نظمه وكيفية اختيار الصور والتشابيه والاستعارات ؛ لتقع موقعها المناسب في سياقها , مع ضرورة تعبيرهم عن بيئاتهم ومعانيهم فكانوا يتطلعون دائماً إلى تقليد الصورة من تشبيه أو استعارات أو غيرها[١] .

وذلك حتىّ تتمّ عملية التحدي على أكمل وجه فكان التحدي في القرآن من نفس العمل الذي عرف به العرب وهو ملكة الفصاحة والبلاغة . وهكذا يظهر العجز أمام القرآن ونظمه , وأيضاً إثبات صدق الرسول (r) بأنّ القرآن الكريم ليس من عنده بل من عند الله سبحانه وأنّ هذه الادعاءات من بعض الكفرة , ادّعاءات باطلة تثبت بطلانها أنفسهم من خلال مشاهداتهم الدنيوية .

وفي الموضع الأخير استخدم سبحانه الاستفهام التقريري المشوب بالإنكار , حتى يلزمهم بأحد الأمرين إماّ أن يكون هذا الرزق الذي جعلتم منه حلالاً وحراماً قد أذن الله لكم به, أو تكونوا مفترين على الله ؛ لأنّ قضية الحلال والحرام تحتاج إلى أمر إلهي , وقد ظهر لفظ الجلال " الله " لتهويل أمر الافتراء عليهم فعكست هذه الآية مدى الارتباك الذي يسيطر

١- انظر, القيسي، عودة الله , في فقه اللغة وبلاغتها اللغة العربية إلهام هي أم اصطلاح، مجلة " هدى الإسلام " إسلامية علمية أدبية,العدد ٤٩/٥ ، ٢٠٠٥، وزارة الأوقاف , الأردن , ص ٧٩.

على هؤلاء القوم الظالمين أنفسهم في مشابهتهم الدين الذي أنكروه , فوضفوا ديناً جعلوا بعض أرزاقهم حلالاً والبعض الآخر حراماً . فإنّ كان ذلك حقاً فمن أبلغهم تلك الشرائع ولماذا يتقبلونها ممن شرعها ولم يتقبلوها من الله , وهم لا يستطيعون أن يلتزموا ذلك أصلاً , فقد افتروا على الله فلزمهم ما الصقوه بالنبي (r) من كذب وافتراء , فعلق بهم وبرّأ الله منه رسوله (r)[١].

وجاءت لفظة الافتراء في سورة يونس متضمّنة دعوة للمشركين , حتى يرتدعوا ويعودوا عن الجدال والكفر وعدم قبول الحق ومحاولة لإقناعهم , بأنّ هذا الكلام والادعاءات على الله ورسوله (r) كلّها باطلة غير حقيقية .

لفظتا (قتر و ذلّة)

ومن الألفاظ التي تكررت في سورة يونس أيضاً" قتر ولا ذلة " حيث جاءت في موضعين من السورة , فمرة في سياق الحديث عن أهل الجنة, والثانية في سياق الحديث عن أهل النار في قوله تعالى: " لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ {٢٦} وَالَّذِينَ كَسَبُواْ السَّيِّئَاتِ جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ "(يونس: ٢٦-٢٧) حيث وضع سبحانه أمامنا صورتين متقابلتين , تتحدث إحداهما عن المحسنين الذين آمنوا بالله ورسله , والأخرى تناولت الحديث عن الذين أساءوا العبادة وانحازوا عن الطريق الصحيح فرفع العذاب عن المحسنين وأثبته سبحانه على

١- انظر, ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٢٠٨/١١.

المسيئين ,وجاءت الصورة الأولى في قمة البلاغة في قوله تعالى: " وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ ".

والرّهق غشيان الشيء نقول رهقه ما يكره أي غشيه ذلك , وأرهقت الرجل أدركته, ورهقته غشيته وأرهقه طغياناً أي أغشاه إياه . وفي التنزيل العزيز " ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة " أي لا يغشاها ولا يلحقها[١] .

والذلّة والقتر صفات تظهر على وجه الإنسان , ولم تأت هذه اللفظتان مجتمعة إلا في سورة يونس لما يحملانه من جزالة في التعبير عن وجه الكافر وما يعانيه من ضيق وخزي , فالقتر عبارة عن لون غبرة إلى السواد وهو لون يغشى جلدة الوجه من شدة البؤس والشقاء والخوف وهو من آثار تهيج الكيد من ارتجاف الفؤاد خوفاً وتوقعاً . أمّا الذلّة فهي الهوان الذي يبدو على وجه الذليل ولا يعني ذلك نفي القتر والذلة عنهم ؛ لأنه تقدم بأنّ لهم الحسنى , وإنمّا هو تعريض بالذين لم يهدهم الله إلى الصراط المستقيم وهم المتمثلون في الصورة الثانية المقابلة لصورة المحسنين حيث اختصر سبحانه في هذه الصورة على لفظة الذلة ولم يذكر القتر على الوجوه ؛ لأنّ ما بعد الذلة سيكون كالقتر بل أشد , من خلال أسلوب التشبيه في قوله تعالى : " كأنمّا أغشيت وجوههم قطع من الليل مظلماً [٢] " .

وقد جاء التشبيه في هذه الآية يعكس صورة متكاملة ينتابها الظلام والسواد الذي يسيطر على وجوه الكافرين , والذي يظهر فيه حالة من الخوف والرهبة تقف النفس أمامها موقف الذليل الخائف الذي لا يعرف أي جهة يكون الأمان فيها فيلجأ إليها ليطمئنّ , حيث اختتمت الآية باسم الإشارة للبعيد دلالة على بعدهم وحالة الضياع التي هم فيها .

١- انظر, ابن منظور، لسان العرب، مادة رهق.

٢- انظر , ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١٤٧/١١و ١٤٨.

لفظة (آلآن)

لقد جاءت هذه اللّفظة في موضعين من السورة , الموضع الأول بعد غرق فرعون يقول تعالى : " آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ " (يونس: ٩١) حيث تبيّن له بعد غرقه وقبل خروج روحه من جسده أنّ موسى وقومه على حق , وكانت آخر لحظة له في حياته فأعلن عندها الإيمان بالله لتأكده من صدق موسى (**u**) فجاءت هذه الآية تتناسب مع ما سبقها من قصة غرق فرعون .

وجاء فرعون من المعجزات الشيء الكثير فلم يؤمن إلا عندما جاءه الموت في آخر لحظة من حياته وهي اللحظة التي يغلق فيها باب التوبة ليكون عبرة يعتبر منها غيره .

والموضع الثاني الذي ذكرت فيه هذه اللفظة في قوله تعالى : " قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ {٥٠} أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُم بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ " (يونس: ٥٠-٥١) وكلمة " آلآن " استفهام إنكاريّ لإيمانهم عند حلول ما توعدهم به سبحانه , وهو استحضار للحالة المستقبلية المتوقعة , فعبّر عن وقت وقوعه باسم الزمان الحاضر[١].

والآية في السياق نفسه ولكنّ لم تختص بفرعون , وإنمّا جاءت للناس كافّة الذين يؤخرون التوبة . فتناولت الآيتان النهاية السيئة للكافرين بأنهم يؤمنون في آخر لحظة , فالأولى خصت والأخرى عمت . والكلمتان في سياق واحد وهو تأخير التوبة والإيمان بالله بعد فوات الأوان .

لقد تميّزت الألفاظ السابقة بالإشارة إلى حالة المؤمن والنعيم الذي يعيشه يوم القيامة من خلال بيان حالة الكافر , حيث سادت على جميع هذه الألفاظ أجواء التّعب والمشقّة التي

١- انظر, ابن عاشور، التحرير والتنوير ، ١٩٤/١١.

تعكس مدى الخوف والرعب الذي يعيشه الكافرين , من خلال ذكر مآل فرعــون الــذي لا يزال جسده عبرة لكلّ الناس وللأبد ؛ تهويلاً وترهيباً من حالة الكافر يوم القيامــة . فحملــت هذه الألفاظ في مضمونها موضوع السور المكية وهو الدعوة إلى الإيمان بالله وحده .

الخـــاتمـــة

تناولت هذه الدراسة النّظم القرآني في سورة يـــونس (**u**) , فحاولـــت اســـتكمال الجهود التي بدأها السابقون . مستعينة بما استجدّ في علم اللغة وعلم الدّلالة في فهم القـــضايا البلاغية في سورة يونس ؛ لتبرز صوراً من الإعجاز البلاغي في القرآن الكـــريم , وتكمـــل سلسلة الدراسات البيانية التي درست النّظم القرآني في سور القرآن الكريم , وقـــد خرجـــت بالنتائج الآتية :

- إنّ القرآن الكريم إضافة إلى إعجازه الناس بسوره وآياته ومضمونها والتّحدي بالإتيان مثلها , فإنّه معجز أيضاً بنظم ألفاظه وتراكيبه وكيفيّة اختيارها وصياغتها معاً .

- أثبتت الدراسة إنّ ترتيب السور والآيات في القرآن الكريم هو بتوقيف من الله سبحانه ولـــيس اجتهاداً من أحد , دلّ على ذلك النّظم القرآني في سورة يونس (**u**) من خلال الأمثلة التي تـــمّ تحليلها , وبذلك يرتفع الخلاف في هذا الموضوع .

- الدّقة الكبيرة في اختيار ألفاظ الفاصلة القرآنية ليكون الإعجاز فيها علـــى المـــستويين المبنـــى والمعنى . فكلّ لفظة وضعت لغاية وهدف تؤديه دون غيره , ومن أسرارها أنهّا تنتهـــي غالبـــاً بحروف المد كما في " يعلمون , ويتفكرون , ومسرفين وغيرها " , مماّ يعطي راحـــة نفـــسية للقارئ ويدفع إلى الاســـتمرار في القراءة .

- كثرة الاستفهام والتوكيد في مضمون السّورة كاملة ؛ وذلك ليتناسب مع البعد المكاني والزماني للسورة وهو مكّة المكرمة في بدايات الدعوة وما اتسّمت به هذه المرحلة من الدعوة إلى عبادة الله وحده ونبذ الشرك والمعتقدات الأخرى .

- تعدّدت الأساليب البلاغية وتنوعت في السورة مثل : التقديم والتأخير والحذف والتعريف والتنكير والطّباق والجناس والاستعارة وغيرها ؛ لإقامة الحجج والبراهين على المشركين وإبطال ادّعاءاتهم وفضح نفسيّاتهم .

- الدّقة العالية في استخدام التشبيهات وعدم تقيّدها بزمان ومكان معيّنين ؛ لتصلح لكلّ زمان ومكان ؛ مماّ يعكس صورة واضحة للقرآن الكريم ودائمة عبر الأجيال .

- جاءت قصص الرّسل في السّورة بأسلوب يخدم موضوع الدعوة الإسلامية في مكّة , لتعكس أثراً نفسّياً لدى سيدنا محمد (r) للاستمرار والثبات على الدعوة .

- الوحدة الموضوعية التي سيطرت على أجواء السورة كاملة وهي الوحدانية لله , على تعدد الأساليب البلاغية والأمثلة وقصص الرسل, فكانت كلّها تصب في موضوع واحد هو توحيد الله ونبذ الشرك .

- أثبتت الدراسة أنّ السياق القرآني هو الذي يكسب الخصوصية للألفاظ , ويمايز بينهما إذا تشابهت المعاني المعجمية .

- وفي الختام فإنّ هذه الدّراسة تدعو إلى الاستمرار في دراسة النظم القرآني في سور القرآن الكريم , للخروج بنتائج تثبت صحة ما جاء به رسولنا محمد(r) على مرّ العصور وتعدّد الأجيال .

والله ولي التوفيق

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم .

٢- ابن الأثير(ت ٦٣٧) , ضياء الدين بن الأثير , المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر, ط٢ , تحقيق : أحمد الحوفي وبدوي طبانه , دار نهضة مصر للطبع والنشر, مصر .

٣- ابن حجر (ت ٨٥٢) , أحمد بن علي بن حجر العسقلاني , فتح الباري شرح صحيح البخاري, ط٣, ٢٠٠٠ , تحقيق:عبد العزيز بن باز ومحمد فؤاد عبد الباقي , دار السلام , الرياض .

٤- ابن حنبل (ت ٢٤١) , أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني , مسند الإمام أحمد بن حنبل, مؤسسة قرطبة , القاهرة .

٥- ابن دريد(ت ٣٢١) , أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد , جمهرة اللغة, ط١, ١٩٨٧, رمزي منير , دار العلم للملايين .

٦- ابن سميط , حسن أحمد بن سميط , الالتفات المعجمي في القران الكريم دراسة لغوية ودلالية , رسالة ماجستير, ٢٠٠٣ , جامعة اليرموك , الأردن .

٧- ابن عاشور , محمد الطاهر , تفسير التحرير و التنوير, ١٩٨٤ , الدار التونسية للنشر.

٨ - ابن عطية(ت ٥٤٢) , لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي , المحـــرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز, ط١ , ٢٠٠١, تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد , دار الكتب العلمية , بيروت .

٩- ابن ماجه(ت ٢٧٣) , محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني , سنن ابن ماجه , تحقيـــق : محمد فؤاد عبد الباقي , دار الفكر , بيروت .

١٠- ابن منظور(ت ٧٥٠) , أبو الفضل جمال الدين محمد بـــن مكـــرم , لـــسان العـــرب , ١٩٩٧ , دار صادر, بيروت.

١١- ابن هشام(ت ٧٦١) , جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام الأنصاري, مغني اللبيب عن كتب الأعاريب , ٢٠٠٥, تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميـــد , دار الطلائع للنشر والتوزيع , القاهرة .

١٢- أبو حمدة , محمد علي , البهيج في أساليب البيان في القرآن الكريم والحديث الـــشريف ونصوص من العربية, ط٢ ,٢٠٠٥, دار عمار للنشر والتوزيع , الأردن .

١٣- أبو حيان(ت ٧٤٥) , محمد بن يوسف , تفسير البحر المحيط , ط١, ١٩٩٣, تحقيق: زكريا عبد الحميد , علي محمد معوض , عادل أحمد عبد الموجود , أحمد النجولي الجمل , عبد الحي الفرماوي , دار الكتب العلمية , بيروت.

١٤- أبو السعود(ت ٩٨٢) , الإمام أبي السعود محمد بن محمد العمادي , تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم , ط٢, ١٩٩٠ , دار إحياء التراث العربي , بيروت.

١٥- أبو شادي , مصطفى عبد السلام , الحذف البلاغي في القرآن الكريم , ١٩٩١, مكتبة القاهرة .

١٦- الألوسي(ت ١٢٧٠) , أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود , روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني , تحقيق : علي عبد الباري عطية , دار الكتب العلمية بيروت.

١٧- الباقلاني(ت ٤٠٣) , أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني , إعجاز القرآن, ١٩٢٧ , مطبعة السلفية , القاهرة.

١٨- بدوي , أحمد , من بلاغة القرآن, ١٩٥٠ , دار النهضة للطبع و النشر , القاهرة .

١٩- البغدادي(ت ٤٨٥) , أبو القاسم عبد الله بن ناقيا , الجمان في تشبيهات القرآن, ٢٠٠٢, تحقيق : محمد رضوان الداية , دار الفكر . دمشق .

٢٠- البقاعي(ت ٨٨٥) , برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر , نظم الدرر في تناسب الآيات والسور , ١٩٩٥ , تحقيق عبد الرزاق غالب مهدي . دار الكتب العلمية , بيروت .

٢١- البيضاوي(ت ٧٩١) , ناصر الدين أبو سعيد عبد الله أبو عمر بن محمد الشيرازي , أنوار التنزيل وأسرار التأويل , ١٩٩٦, تحقيق : عبد القادر عرفات العشا حسونه , دار الفكر , بيروت .

٢٢- الترمذي(ت ٢٧٩) , محمد بن عيسى أبو عيسى , الجامع الصحيح سنن الترمذي , تحقيق : أحمد محمد شاكر , دار إحياء التراث العربي , بيروت .

٢٣- الجرجاني(ت ٤٧١) , أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي, أسرار البلاغة, ط١ , ١٩٩١, تحقيق : محمود محمد شاكر , دار المدني , السعودية.

٢٤- الجرجاني (ت ٤٧١) , أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي , دلائل الإعجاز ط٣, ١٩٩٢, تحقيق : محمود محمد شاكر , دار المدني , السعودية .

٢٥- الجوهري(ت ٣٩١) , إسماعيل بن حماد , الصحاح تاج العرب وصحاح العربية , ط٢ , ١٩٧٩, تحقيق : أحمد عبد الغفور , دار العلم للملايين , بيروت.

٢٦- الحاج علي , جمال رفيق , النظم القرآني في سورة يوسف عليه السلام , رسالة ماجستير , ٢٠٠٠, جامعة النجاح الوطنية , فلسطين .

٢٧- حسين , عبد القادر , فن البديع ط١ , ١٩٨٣, دار الشروق , بيروت .

٢٨- الخازن(ت ٧٢٥) , علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن, تفسير الخازن المسمي لباب التأويل في معاني التنزيل ,ط١, ١٩٩٥, تحقيق : عبد السلام محمد شاهين , دار الكتب العلمية بيروت.

٢٩- الخطيب , مجدي محمد , أسلوب الالتفات في شعر البردوني , رسالة ماجستير, ٢٠٠٦ , جامعة اليرموك , الأردن .

٣٠- الدرويش , محي الدين , إعراب القران وبيانه ,ط٧, ٢٠٠٢, اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع, بيروت .

٣١- رضا , محمد رشيد , تفسير القرآن الحكيم المشتهر باسم تفسير المنار, ط٤, ١٩٥٢, دار المنار , القاهرة .

٣٢- الرضي(ت ٤٠٦) , الشريف , تلخيص البيان في مجازات القرآن, ط١, ١٩٥٥ , تحقيق : محمد عبد الغني , دار إحياء الكتب العربية , القاهرة.

٣٣- زرزور , عدنان , القرآن ونصوصه , ١٩٨٠, مطبعة خالد بن الوليد , دمشق .

٣٤- الزركشي(ت ٤٩٧) , بدر الدين أبو عبد الله محمد بن بهادر بن عبد الله , البرهان في علوم القران, ط١ ,٢٠٠٧, تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا , دار الكتب العلمية , بيروت.

٣٥- الزمخشري(ت ٥٣٨) , جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري , أساس البلاغة, ط١, ١٩٩٨ , تحقيق : مزيد نعيم وشوقي المعري , مكتبة لبنان , بيروت

٣٦- الزمخشري(ت ٥٣٨) , جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري , الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل, ط١ , ١٩٩٨, تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود , علي محمد معوض , فتحي عبد الرحمن حجازي , مكتبة العبيكان , الرياض.

٣٧- السامرائي , فاضل , بلاغة الكلمة في التعبير القرآنـــي , ط١, ٢٠٠٠, دار الـــشؤون للثقافة العامة , بغداد.

٣٨- السامرائي , فاضل , التعبير القرآني, ط ٣ ,٢٠٠٤ , دار عمار , عمان .

٣٩- السامرائي , فاضل , ط١ , ٢٠٠٩, من أسرار البيان القرآني , دار الفكر , عمان.

٤٠- السيوطي(ت ٩١١) , جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن , الإتقان في علوم القـــرآن, ١٩٨٨ , تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم , المكتبة العصرية للطباعة والنشر, بيروت .

٤١- السيوطي(ت ٩١١) , جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن , علم المناسبات في الـــسور و الآيات ويليه مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع , تحقيق : محمد بن عمـــر بـــن سالم بازمول , المكتبة المكية , مكة.

٤٢- الشعراوي , محمد متولي , خواطر حول القرآن الكريم, ١٩٩١ , دار أخبـــار اليـــوم , القاهرة.

٤٣- شقيرات، أحمد , وجوه الإعجاز في القرآن الكريم ، مجلة " هدى الإسلام " إســـلامية علمية أدبية, العدد ٥١/١ ، ٢٠٠٧ ، وزارة الأوقاف , الأردن.

٤٤- الصابوني , محمد علي الصابوني , صـــفوة التفاســـير, ط٩ , ١٩٨٠, دار الـــصابوني للطباعة والنشر , مصر .

٤٥- الصاوي , أحمد , فن الاستعارة دراسة تحليلية في البلاغة والنقد مع التطبيق على الأدب الجاهلي , ١٩٧٩, الهيئة المصرية العامة للكتاب , الإسكندرية

٤٦- الصرايرة , نوح عطا , التعريف والتنكير بين النحويين والبلاغيين دراسة دلالية وظيفية نماذج من السور المكية , رسالة ماجستير , ٢٠٠٧, جامعة مؤتة , الأردن .

٤٧- طبل , حسن , أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية, ١٩٩٠ , القاهرة.

٤٨- طبل , حسن , علم المعاني في الموروث البلاغي تأهيل وتقيم, ط٢ , ٢٠٠٤ , مكتبة الإيمان , مصر .

٤٩- عباس , فضل حسن , إتقان البرهان في علوم القران , ط١ , ١٩٩٧, دار الفرقان للنشر والتوزيع , الأردن .

٥٠- عباس , فضل حسن , إعجاز القرآن الكريم , ١٩٩١, دار الفرقان للنشر والتوزيع, عمان .

٥١- عباس , فضل حسن , البلاغة فنونها وأفنانها , ط١٠ , ٢٠٠٥, دار الفرقان للنشر والتوزيع, الأردن .

٥٢- عبد الواحد , عهود, السور المدنية دراسة بلاغية وأسلوبية, ط١, ١٩٩٩, دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع , الأردن .

٥٣- عتر , حسن ضياء الدين , بينات المعجزة الخالدة , ط١ , ١٩٧٥, دار النصر , سوريا

٥٤- عمايرة , خليل , النفي والاستفهام : منهج وصفي للتحليل اللغوي في العربية , دار المسيرة , الأردن .

٥٥- عيّاش , ثناء نجاتي , تشابه الأطراف في القرآن الكريم سورة الأنفال نموذجاً , المجلة العربية للعلوم الإنسانية, العدد ٤٩/٥ , ٢٠٠٥ , مجلس النشر العلمي , جامعة الكويت .

٥٦- القزويني(ت ٧٣٩) , جلال الدين محمد بن عبد الرحمن , الإيضاح في علوم البلاغة, ط٥ , تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي , دار الكتاب اللبناني , بيروت, ١٩٨٣.

٥٧- القزويني(ت ٧٣٩) , جلال الدين محمد بن عبد الرحمن , تلخيص المفتاح في المعاني والبيان والبديع , تحقيق : ياسين الأيوبي , المكتبة العصرية , بيروت , ٢٠٠٢ .

٥٨- القطان , مناع , مباحث في علوم القران, ط١ , ١٩٩٢, مكتبة المعارف للنشر والتوزيع , الرياض .

٥٩- قطب , سيد , التصوير الفني في القرآن, ط١٤ , ١٩٩٢, دار الشروق , القاهرة .

٦٠- قطب , سيد , في ظلال القرآن,ط٢٢ , ١٩٩٤, دار الشروق , بيروت .

٦١- القيسي ،عودة الله ، فقه اللغة وبلاغتها اللغة العربية إلهام هي أم اصطلاح, مجلة " هدي الإسلام " إسلامية علمية أدبية , العدد ٤٩/٥, ٢٠٠٥ , وزارة الأوقاف , الأردن.

٦٢- الكفوي(ت ١٠٩٦) , أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني , الكلّيات معجم في مصطلحات الفروق اللغوية , ١٩٩٨ , تحقيق : عدنان درويش ومحمد المصري , مؤسسة الرسالة , بيروت .

٦٣- لاشين , عبد الفتاح , البديع في ضوء أساليب القرآن , ط٣ , ١٩٨٦, مكتبة الإنجلو المصرية , مصر .

٦٤- لاشين , عبد الفتاح , البيان في ضوء أساليب القرآن , ط٣ ,١٩٩٢, دار المعارف, القاهرة .

٦٥- لاشين , عبد الفتاح , المعاني في ضوء أساليب القرآن الكريم , ط٤, ٢٠٠٠, دار الفكر العربي , مصر.

٦٦- لاشين , عبد الفتاح , من أسرار التعبير في الفاصلة القرآنية , ١٩٨٢, دار المريخ للنشر , الرياض.

٦٧- المدني(ت ١١٢٠) , ابن معصوم علي صدر الدين , أنوار الربيع في أنواع البديع, ط١ , ١٩٦٨, تحقيق : شاكر هادي شاكر , مطبعة النعمان , بغداد .

٦٨- المراغي , أحمد مصطفى , تفسير المراغي,ط١, ١٩٩٨ , تحقيق : باسل عيون السود, دار الكتب العلمية , بيروت .

٦٩- الملاح , عائشة إبراهيم حسن , النظم القرآني في سورة النور , رسالة ماجستير, ٢٠٠٤, الجامعة الأردنية , الأردن .

٧٠- نحله , محمود أحمد , التعريف والتنكير بين الدلالة والشكل, ١٩٩٩, مكتبة زهراء الشرق , مصر.

٧١- نعامة , عادل , أسلوب النداء وجمالياته عند النحاة والبلاغيين , رسالة ماجستير , ٢٠٠٤, جامعة تشرين , سوريا .

٧٢- الهاشمي , أحمد , جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع, ١٩٩٩ , تحقيق وشرح محمد التونجي , مؤسسة المعارف للطباعة والنشر , بيروت

Abstract

Qur`anic Versification In Surat Younes

By

Ahmad Hasan Mahmoud Sawai

Supervisor

Prof. Mohammad Ibrahim Huwwar

This study searches for the meracle of Koran In younes sura , It is based basically at versification theory which is established by Abd Alqaher Algaragani .This study is considered as one of the applicable study of external proportional of Younes sura add to that studying of eloquence science methods in the sura which means studying of its meaning , its metathorical, and some dictionary lexicon for some idioms and expressions in it .

The first chapter discusses external versification for verses due to the relation between the beginning of sura with the end of the previous one (Tawba sura) , from other side the relation between the end of younes sura with the beginning of the following sura (Hood sura) add to that the occasion of the verses with each other and before all that they talk about the occasional science from many sides its concept , its benefit , and the arrangement of Koran as an entrance for studying the chapter .

The second chapter discusses eloquence science which discusses meanings metathoric and marvelous each one in special unit due to that the chapter consists of 3 units the first of it meanings then metathorical language next to that eloquence science and its styles too .

The third chapter talks about the dictionary lexicon of Younes sura through recording some idioms and expressions which play the basic role in extracting the specific meaning in the specific verses. The conclusion contains the most important results of this studying.